اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

ا.د. محمد سيد أحمد المسيّر

الشفاعة في الإسلام

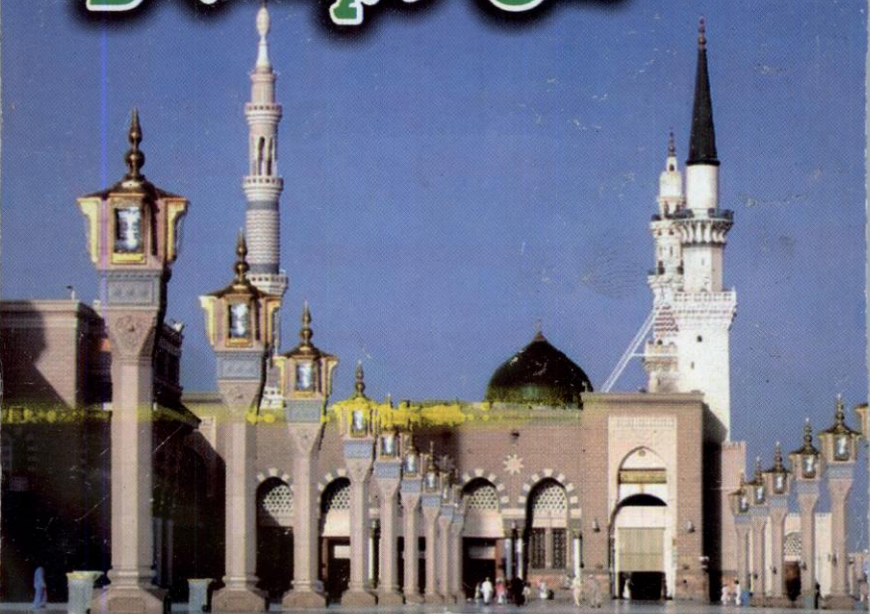

دار المعارف

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
/٧١٨/

رئيس التحـــرير

إسماعيل منتصر

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم غلاف
منال بدران

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المسير ، محمد سيد أحمد .
الشفاعة فى الإسلام .
محمد سيد أحمد المسير
- ط ١ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٧ .
١٢٤ ص ، ٢٠ سم (اقرأ) .
تدمك ١ - ٧١٤٤ - ٠٢ - ٩٧٧ = ٩٧٨
١ - الشفاعة . ٢ - الشفاعة فى القرآن .
أ - العنوان .
ديوى ٢٤٣

رقم الإيداع ٢١٨٣٠ / ٢٠٠٧ ٢٠ / ٢٠٠٧ / ١

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ - *E-mail: maaref@idsc.net.eg*

الدكتور محمد سيد أحمد المسير

الشفاعة فى الإسلام

دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

دار المعارف بمصر

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى...

أمـــا بعـــــــد

فالشفاعة فى الإسلام لها جوانب متعددة تتصل بالعقيدة والأخلاق والسلوك، قد لا يعلمها البعض وقد يجادل فيها آخرون بالباطل.

وجاء هذا الكتاب ليؤكد أن الشفاعة العظمى يوم القيامة من خصائص سيدنا محمد ﷺ، وأن شفعاء يوم الحشر هم الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء والمؤمنون، وأن الشفاعة ليست خاضعة لإرادة بشر، وأن حكمة الشفاعة هى تكريم الله تعالى للشفعاء، وأن قدرة الله جل شأنه وحكمته اقتضت أن يكون لبعض الأعمال الصالحة شفاعة يوم القيامة، وأن هناك شفاعة فى الدنيا قد تكون حسنة وقد تكون سيئة.

وقد تتبعنا النصوص الشرعية فى هذه الجوانب كلها وسقناها مع توضيح شاف لمفاهيم الشفاعة..

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»..

أبو حذيفة
أ. د. محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين
جامعة الأزهر

فصول الكتاب

الفصل الأول:

* الشفاعةُ العُظْمَى.

الفصل الثانى:

* سَيِّدُ الشُّفعاءِ.

الفصل الثالث:

* الشُّفَعاءُ عِند اللهِ تبارك وتعالى.

الفصل الرابع:

* الفائِزُونَ بِالشَّفاعةِ.

الفصل الخامس:

* اَلْمَحْرُومُونَ مِنَ الشَّفاعَةِ.

الفصل السادس:

* اَلشَّفاعةُ فِى الدُّنْيا.

الفصل الأول

اَلشَّفاعَةُ الْعُظْمَى

* المَوْقف العظيم.
* مَوْقفُ آدمَ عَلَيه الصلاة والسلام.
* مَوْقفُ نُوحٍ عَلَيه الصلاة والسلام.
* مَوْقفُ إبْراهيمَ عَلَيه الصلاة والسلام.
* مَوْقفُ موسَى عَلَيه الصلاة والسلام.
* مَوْقفُ عيسَى عَلَيه الصلاة والسلام.
* مع سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ.
* شفاعَةُ الرَّسولِ - ﷺ - لأُمَّتِه.

الموقف العظيم

أخرج مسلمٌ في صحيحِه بسندِه عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ، فَيَهْتَمُّونَ لِذلِكَ، أَوْ فَيُلْهَمُونَ لِذلِكَ، فَيَقُولُونَ: «لَوِ اسْتَشْفَعْنا عَلَى رَبِّنا، حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكانِنا هذا..» .

***

هذه بدايةُ حديثٍ طويل في الشفاعةِ العُظْمَى لرسولِ اللهِ ﷺ، نقفُ أمامه وقَفاتٍ تأمُّليَّةً، نستحضِرُ الماضِيَ والحاضِرَ والمُستقبل، برؤيةٍ شرعيَّةٍ و فِقْهٍ دينيٍّ لوجهِ اللهِ وحدَه، إظهارًا للحقيقة، ودَعوةً إلى الناسِ بأنْ يعتصِموا باللهِ تبارك وتعالى، ويستمسكوا بالشرعِ الحنيفِ..

وقضيةُ البعثِ والحَشرِ والجمعِ لميقاتِ يومٍ معلوم: هي لُبُّ الدِّين والعقيدةِ؛ لأنها تعْنِي اليقينَ المُطْلَقَ باللهِ وحْده وقُدرتِه الكاملةِ وسُلطانِه العظيم.. وتلك القضيةُ - في مفهومِها الشرعيِّ - هي إخراجُ اللهِ تبارك وتعالى الناسَ من قبورِهم وسَوْقِهم إلى أرضِ المحْشرِ، ليلْقَوْا جزاءَ أعمالِهم التي عمِلوها في الدنيا، ويصِلُوا إلى الخلودِ الأبديِّ في النعيمِ أو الجحيم..

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ

ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١).

في هـذا اليوم يعْتَرِى الخلائقَ الهُمـومُ وينْتابُهم القلقُ وتُحيط بهم الشِّدةُ..

ويبْلُغ الناسَ من الغمّ والكَرْب مالا يُطيقون ومالا يحْتملون. فيهتمُّون لذلـك، ويقول بعضُهم لبعض، كما فى روايةٍ أخـرى «ألَا تَرَوْن ما أنْتُم فيه ؟ ألا تَرَوْنَ ماقَدْ بَلَغَكُم؟

أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟!»

ويكونُ هذا القوْلُ على سبيلِ الإلهام؛ بأن يُلقِىَ اللهُ تباركَ وتعالى فى نفوسِ أهل الموقفِ هذا المَعنى، فيذهَبوا إلى الأنبياءِ رَجاءَ الشّفاعةِ.

فحِـرصُ أهـلِ الموقفِ على الشـفاعةِ إلْهامٌ مـن اللهِ، وطلبُ الأنبياء للشّفاعةِ تكريمٌ من اللهِ لهم، وقبولُ الشفاعةِ رحمةٌ من اللهِ لعبادِه فترجع الشفاعةُ إلى اللهِ كما بدأت منه، ولهذا قال اللهُ جلّ شأنُه:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود الآيات ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) سورة الزمر الآية ٤٤.

مَوْقف آدمَ عليْه الصَّلاةُ والسّلام

نتابع القولَ فِي حديثِ الشفاعةِ العُظْمى. قال رسولُ اللهِ ﷺ:
«فَيأتُون آدَمَ عليه السَّلام، فَيَقُولُونَ:
أَنْتَ أَبو الخَلْقِ، خَلَقَكَ اللهُ بيَدِه، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِه، وَأَمَرَ الملائكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ.. اشْفَعْ لَنا عِنْدَ رَبِّكَ، حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكانِنا هذا، فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُناكُمْ» فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أصابَ، فَيَسْتَحِيي رَبَّهُ مِنْها».

* * *

يذهبُ أَهْلُ الموقف إلى آدمَ عليْه الصلاة والسلامُ رجاء الشفاعة، ويُذَكِّرونه بنعم اللهِ عليه التي تجعلُه أقربَ إلى اللهِ عزَّ وجلَ. فآدمُ أبو الخَلْق، وفى رِوَاية «أبو البَشَر»: خلقَه اللهُ بيدِه تكريمًا له، ونفَخَ فيه من رُوحِه تشريفًا له، وأَمَر الملائكةَ بالسجودِ تحيَّةً له..

والمُراد بيَدِ اللهِ: قُدرتُه، وبرُوح اللهِ: رُوحٌ خَلقَها اللهُ تعالى، وقد تكرّر هذا المعْنى فى القرآنِ الكريم، قال جلّ شأنُه:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١).

(١) سورة ص الآيات ٧١ - ٧٤.

ويرُدُّ آدمُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ على أهلِ الموقف قائلًا:
«لَسْتُ هُناكُمْ، أَوْ لَسْتُ أَهْلًا لَها، أَوْ لَسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ، أَوْ نَفْسِي نَفْسِي»

كما وردتْ بذلك الرِّواياتُ.. ويُعَبِّرُ عمَّا يراه من أهْوال فيقولُ:
«إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ..»

والمُراد بغضب الله هنا: أهوالُ الموقفِ وشدائدُ المحْشرِ التى أشار إليها القرآنُ الكريمُ فى مثل قوله تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾[1].

ثم يتذكّر آدمُ عليْه الصلاة والسلامُ معصيَتَه، فيقولُ:
«إِنَّهُ قَدْ نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُهُ».

ومن المعلوم أنّ معصيةَ آدمَ عليه الصلاة والسلام: نِسيانٌ للعداوةِ بينه وبين إبليس، وأنّ آدم عليه الصلاة والسلام، خُدِع بنصيحةِ إبليس، عندما قال، كما حكَى القُرآن الكريم:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

(١) سورة الحج الآيات ١ -٢.

ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

فلم يُقدِمْ آدمُ – عليه الصلاة والسلام – على المعصيةِ اجْتراءً على اللهِ، ولا تمرُّدًا على شرْعِه وإنما فعل مافعل من أجل هدفٍ صحيح هو الاستمرارُ فى الطاعةِ، والخلودُ فى الجنةِ، والمَعِيَّةُ مع اللهِ، ولهذا قال جلّ شأنُه: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

فخطيئةُ آدم عليه الصلاة والسلام، من باب «حَسَناتُ الأَبْرارِ: سَيِّئاتُ المُقَرَّبينَ.» .

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٠ – ٢٢.
(٢) سورة طه الآية ١١٥.

مَوْقِفُ نُوحٍ عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ

نتابع القوْلَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمى..

قال رسولُ اللهِ ﷺ : (فَيَقُولُ آدَمُ عليه الصلاة والسلام:
«ولكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ» :
قالَ: «فَيَأْتُون نُوحًا عليه الصلاة والسلام، فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُناكُمْ» .
فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أصابَ، فَيَسْتَحِيى رَبَّهُ مِنْها) ..

* * *

يرفُض آدمُ عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعاً لأهلِ الموقِف ويرى نفسه فى حاجةٍ إلى عفْوِ اللهِ ورحمتِه، وإلى من يشْفع له عند ربِّه.

ويقترحُ أن يَذهبَ النَاسُ إلى نوحٍ عليه الصلاة والسلام ويصِفُه بأنه أول رسولٍ بعثَه اللهُ تعالى. والمُرادُ أنه أوّلُ رسولٍ بعد الطوفانِ أوْ أوّل رسولٍ بُعِث إلى قوْم كافِرين. فالأنبياءُ قبْل نوح أُرْسِلوا إلى قوم مُؤمنين، مازالوا على الفِطرَةِ لم ينشأ فيهم الكُفر. فبدايةُ الانحرافِ البشرىِّ بعبادةِ الأصنام كانت على عهدِ نوح عليه الصلاة والسلام.

فيذهبُ النَاسُ إلى نوح عليه الصلاة والسلام ويقولون له - كما فى بعض الروايات : - «يانُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اِشفَعْ لَنا إلَى رَبِّكَ.. أَلَا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟ ألا تَرَى ماقَدْ بَلَغَنا ؟!»

ووصْفُ نوح بالعبدِ الشَكور جاء فى قولِه تبارك وتعالى:
﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (١).
وفى الأثرِ عن السَّلَفِ أن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان يحمد الله على طعامِه وشرابِه ولِباسِه وشأنِه كلِّه. فلهذا سُمِّىَ عبدًا شكورًا.

والخطيئةُ التى تذكَّرها نوحٌ عليه الصلاة والسلام، واستحيا ربَّه منها هى دعوتُه على قوْمِه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢).

وقد دعا نوح عليه الصلاة والسلام على قوْمِه بعد جهادٍ طويلٍ وصبرٍ كبيرٍ وبأْساءَ شديدة. فقد مكث فيهم نبيًّا رسولا ألف سنَةٍ إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل..

ولم تكن تلك الدعوةُ ذنبًا حتى يستحْيىَ ربَّه منها، وإنما هو هضْمُ النفْسِ، ومعرفةُ عظمةِ الرَّبِّ، وتقديسُ الكبيرِ المُتعالِ..

ويرفض نوح عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعاً ويقول: «إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مثلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثلَهُ.. نَفْسِى نَفْسِى..»

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣.
(٢) سورة نوح الآية ٢٦ – ٢٧

مَوْقِفُ إبْراهيم عليْه الصلاةُ والسّلام

تتابع القـول فى حديـث الشـفاعةِ العُظمى.. قال رسـولُ الله ﷺ (فيقول نوح عليه الصلاة والسلام: «وَلكِن ائْتُوا إبْراهِيمَ عليه الصلاة والسـلام، الَّذِى اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا» فيأتـون إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول: «لست هُناكم» ، ويذكر خطيئتَه التى أصابها فيستحيى ربَّه منها) ..

* * *

يرفض نوحٌ عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعًا لأهل المَوْقف ويدعو الخلائـق إلى الذهاب لإبراهيمَ عليه الصلاة والسـلام، ويذكر مؤهِّلاتِه لذلك، وهى: أن الله تبارك وتعالى اتَّخذه خليلًا..

وقد نصَّ القرآنُ المجيدُ على خُلة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾[1].

والخُلَّةُ هى المـودّة والحُبّ الخالص، لأنها تتخلّل النفسَ وتتوسّـط القلب. فإبراهيم ﷺ بلغ المُنتهى فى الحُبِّ لله تبارك وتعالى..

وقد وُصف بهذه الخلّةِ أيضًا سيدُنا محمدٌ ﷺ :

(١) سورة النساء الآية ١٢٥.

كما جاء في صحيح الحديث: «أيُّها النـاسُ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَلِيلًا، ولكِنّ صاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ».

ويأتي النَّاسُ إبراهيمَ عليهِ السلام ويسألونه الشَّفاعةَ، فيَقولُ: «لَسْتُ أَهْلًا لَها، نَفْسِي نَفْسِي. إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»..

ويذْكُـر إبراهيمُ عليه السـلام خطيئتَـه أو كذباتِه، فيسـتحْيِي أن يسـأل اللهَ الشَّـفاعةَ. وكذبـاتُ إبراهيـمَ عليْه الصلاةُ والسـلامُ هي من المَعاريض، التي تحتمِل وجْهَيْن. وقد رخَّص فيها الشَّـرعُ، وليسـت ذنْبًا يُؤاخَذ به الإنسان، لكنه هضْمُ النفسِ واستشعارُ عظمةِ الرَّبّ. وهذه الكذبـاتُ جاءت في صحيح البُخاري بسـنده عن أبي هريرة ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّـلامُ إلَّا ثَـلاثَ كَذَبَات: ثِنْتَيْـنِ مِنْهُنَّ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هي قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾[2].

وقال: بَيْنا هُوَ ذاتَ يَوْمٍ وَسـارَّةُ، إذ أَتَى عَلَـى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبابِرَةِ، قِيلَ لَهُ: إنَّ هٰهُنا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فأَرْسَلَ إلَيْه فَسَأَلَهُ عَنْها؛ فَقالَ: «مَنْ هذه؟» قالَ: «أُخْتِي». فأتى سارَّةَ قالَ: «ياسَارَّةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإنَّ هذا سَأَلَنِي عَنْكِ، فَأَخْبَرْتُه أَنَّكِ أُخْتِي، فَلا تُكَذِّبِينِي.» فَأَرْسَـلَ إلَيْها، فَلَمّا دَخَلَتْ

(١) سورة الصافات الآية ٨٩.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٣.

عَلَيْـهِ، ذَهَبَ يَتَناوَلُها بِيدِهِ، فَأُخِذَ [1] فَقالَ: «ادْعِي اللهَ لِي وَلا أَضُرُّكِ»، فَدَعَتِ اللهَ، فَأُطْلِقَ..

ثُـمَّ تَناوَلَهـا الثَّانِيَةَ، فَأُخِـذَ مِثْلَها أَوْ أَشَـدَّ، فَقـالَ: «ادْعِي اللهَ لِي وَلا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ، فَأُطْلِقَ؛ فَدَعا بَعْضَ حَجَبَتِه، فقالَ: «إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسـانٍ: إِنَّما أَتَيْـتُـمُونِي بِشَـيْـطانٍ، فَـأَخْـدَمَـهـا هاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَـلِّي، فأَوْماً بِيَدِهِ: مَهْيَمْ (ما الخبر)؟

قالَتْ: «رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكافِرِ - أَوِ الْفاجِرِ - فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هاجَرَ» قال أبو هريْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يابَنِي ماءِ السَّماءِ.. (أى: أعراب البادية).

---

(١) فقبض الله يد الطاغية فشُلَّت

مَوْقِفُ مُوسَى عليْه الصَّلاةُ والسَّلام

نتابع القوْلَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسولُ اللهِ ﷺ : (فيَقُولُ إبْراهِيمُ: «وَلكِنِ ائْتُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِى كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطاهُ التَّوْراةَ» .

فَيأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَيَقُولُ : «لَسْتُ هُناكُمْ» ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتى أصابَ، فَيَسْتَحْيى رَبَّهُ مِنْها) ..

* * *

تنحَّى آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ عليْهم الصلاةُ والسلام عن طلبِ الشفاعةِ لأهل الموقف، ووصل الناسُ إلى موسى عليه الصلاةُ والسلام، وكانت مُؤَهِّلاته عندهم لطلبِ الشفاعةِ هى أن موسى كليمُ اللهِ تبارك وتعالى، وقد أنزل عليه التوراة..وقد جاء هذا الوصفُ لموسى عليه الصلاة والسلامُ فى القرآنِ المجيد. فقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ (١).

وقال جلّ شأنُهُ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٢)

وكلامُ اللهِ تبارك وتعالى صفتُه القديمةُ، وحقيقةُ الصِّفَةِ تُفهَم فى إطارِ قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (٣).

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.
(٢) سورة المائدة الآية ٤٤.
(٣) سورة الشورى الآية ١١.

وقوله سُبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (١).

وقد حاول البعضُ أن يقرأ لفظ الجلالة منصوبًا «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسى تكْليمًا» على معنى أن موسى هو المُتكلِّم. وهذا معنًى مرفوضٌ وقراءةٌ تتنافى مع قوْله جلَّ شأنُه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (٢).

فأسْند الكلامَ إلى الله تبارك وتعالى صريحًا من غير احتمال فيه.. وينضمُّ موسى عليه الصلاة والسلام إلى طائفة الأنبياء الذين يشْعُرون بالاسْتِحْياء من الله تبارك وتعالى، ولا يَرَوْن أنفُسَهم أهْلاً للشفاعة، ويذْكُر موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خطيئته، وهى قتلُ أحدِ المصريِّين الذى اعتدى على أحدِ الإسْرائيليين. وجاء ذكر ذلكَ فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣).

إنّ حقيقةَ الموقف لم يكن قتلًا ولاشُروعًا فى قتل، وإنما كان إنقاذًا للضعيفِ من أيْدى القوىّ. فوكْزُ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام للقبطىّ من بابِ دفعِ الصّائلِ الظالمِ ليحْجِزَه عن ظلْمه، فهو وكْزٌ صادف أجَلًا..

(١) سورة الإخلاص الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٣) سورة القصص الآيات ١٥ - ١٦.

ومع ذلك ظل موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نادِمًا تائِبا مُستغفِرًا. وقد تاب الله عليْه واجْتباه واخْتاره واصطنعه لنفسه. قال تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ (١).

وقال جلَّ شأنُه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة طه الآية ١٣.

(٢) سورة طه الآية ٣٦.

(٣) سورة طه الآية ٤١.

مَوْقِفُ عيسى عليه الصلاةُ والسلام

نتابع القـولَ فِى حديثِ الشَّـفاعةِ العُظْمَى.. قال رسـولُ اللهِ ﷺ: (فَيَقُولُ مُوسَى: «وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ». فَيأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ: فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ».)

* * *

يتعاقـبُ أَهْلُ الموقف على الأنبياءِ، كلُّ نبىٍّ يُرشِـدهم إلى مَن بعده، حتى يصلوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

ومُؤَهِّلاتُ عيسَـى عليه الصلاةُ والسلامُ عند أَهلِ الموقفِ لطلبِ الشفاعةِ، هـى أنّ عيسـى رُوحُ اللهِ وكَلِمَتُهُ، وقد جاء هذا الوصـفُ فى القرآنِ المجيدِ فـى قوله تبـارك وتعـالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١).

ووجهُ تسميةِ عيسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكَلِمَةِ أنْ الإرادةَ الإلهيَّةَ العُليـا تمخَضت فيه وخرَقت له النَّواميسَ العامَّةَ لِلتَّوالُدِ بيْنَ البشَـرِ، وشـاءَ الله تبارك وتعالى أَنْ يَكُونَ فَـكانَ: والتَّعْبيرُ عَنِ المَفْعُولِ بِالْمَصْدَرِ شـائعٌ فِى لُغَةِ الْعَرَبِ فَهُوَ كَلِمَةٌ بمعنى مُتَكَلَّمٌ بِهِ، كما فى قوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ (٢) أىْ: مخلوقُ الله.

(١) سورة النساء الآية ١٧١.
(٢) سورة لقمان الآية ١١.

وقد يأتى فى لُغةِ العرب الوصفُ بالمصدرِ بدلا من اسْم الفاعل أو الصِّفة المُشَبَّهة للمُبالغة، فيُقال: فلانٌ عِلْمٌ وكَرَمٌ أى: عالمٌ وكريمٌ.. فالكلمةُ فى حقِّ عيسى ﷺ أوْفى وأجْدر، لأنه تكلم فى المَهد فهو كلمةٌ بمعنى مُتكلِّم. ولاشكَّ أن البشرَ جميعاً والكائناتِ كلَّها بإرادةِ الله تبارك وتعالى، وكلمته التكوينيَّة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ لكن عيسى عليه الصلاة والسلام خُصَّ بكوْنه كلمةَ اللهِ أو رُوحَ اللهِ تشريفًا وتكريمًا. فالإضافة على معنى الاصْطفاء. كما فى قوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ (١).

ويرى عيسى ابنُ مريمَ ﷺ أنه ليس أهلًا لطلب الشفاعةِ. إنّ أهْلَ المَوْقفِ يقولون له: «يا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ - تَعالَى - أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ - تَعالَى - فَاشْفَعْ لنا إِلَى رَبِّكَ.. «أَلا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ماقَدْ بَلَغَنا؟» فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ : «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.. نَفْسِي نَفْسِي»

وتُضيف هذه الروايةُ أنّ عيسى ﷺ لم يذْكُر له ذنبًا، أىْ عملًا خلافَ الأوْلَى: لأنّ الأنبياءَ جميعًا معْصومون من فِعل الكبائرِ وتعمُّد الصَغائر؛ فهُمُ القُدوة الكاملةُ للبشرِ، وماورد من إطلاقِ لفظِ الذنبِ أو المعصيةِ على بعضِ أفعالهم فهو من قبيل هضْم النفس، واسْتِشعار عظمةِ الرَّبِّ، ومِنْ بابِ «حَسَناتُ الأبْرارِ سَيِّئاتُ المُقَرَّبينَ» ..

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٣.

نتابع القوْلَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسول الله ﷺ : (فَيَقُولُ عِيسَى) : «ولكن ائْتُوا مُحَمَّداً ﷺ : عَبْـدًا قَدْ غُفِرَ لَـهُ ماتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِـهِ وَما تَأَخَّرَ» . قـالَ : «فَيَأْتُونِى، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّى، فَيُؤْذَنُ لِى؛ فَإِذا أَنا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ ساجِداً» ..

* * *

ينتهى المطافُ بأهل المحْشـر إلى سـيِّدنا محمد ﷺ بنصيحةِ عيسى عليـه الصلاةُ والسَـلامُ، إذْ يقول لهم: «ائتُوا مُحَمَّدًا: عَبْـدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ ماتَقَـدَّمَ مِـنْ ذَنْبِهِ وَما تَأَخَّـرَ» فهو ﷺ العبدُ الكامـلُ العبودِيةِ لله ربِّ العالمـين. والتعبيـرُ بقولـه: «قَدْ غُفِرَ لهُ ماتَقَدَّمَ مِـنْ ذَنْبِه وما تأَخَّرَ» . يعنى: التنزيهَ له ﷺ عن كافَّةِ الذُنوب، فهو مُطَهَّرٌ تطهيرًا..

وفى روايةٍ أخرى: يقولُ أهلُ المحْشر:

«يامُحَمَّدُ، أنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأنْبياءِ، وغَفَرَ اللهُ لك ماتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تـأَخَّرَ.. اشْفَعْ لَنا إلَى رَبِّكَ.. أَلا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟؟ أَلا تَرَى ما بَلَغَنا؟!»

فهـو خاتَمُ الأنبياءِ، به خُتِمت السلسـلةُ الطاهـرةُ التى بدأتْ بآدمَ وتغلغلتْ فى كافَّةِ الأزمنةِ والأمكنةِ، قال تبارك وتعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

ويتحمّل رسولُ الله ﷺ الشفاعةَ لأهلِ الموقف، وَهِيَ الشفاعةُ العُظمى التى يبْدأ عَقِبَها الفَصلُ بين الخلائق وحسابُهم، ويقولُ: «أنا لَها...»

ويستأذِنُ الرسولُ ﷺ على ربِّه لطلب الشفاعةِ بإلهام من الله عزَّ وجلّ، فيُؤذن له، ويخرُّ الرسولُ ﷺ ساجداً لربِّه.

وفي روايةٍ: «فَأَنْطَلِقُ.. فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي.. ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسنِ الثَّناءِ عليه شيئاً لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي».

وهذا الحَمْدُ والثَّناءُ: قَبْلَ السُّجُودِ وَأَثْنَاءَهُ وَبَعْدَهُ. ففي روايةٍ «فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ (أَي الْحَمْدُ) الآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا..»

وهذا الحمدُ المُلْهَمُ يعقُبُه النِّداءُ الإلهيُّ: إِرْفَعْ رَأْسَكَ يامُحَمَّدُ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فيتوالى الحمدُ من رسولِ الله ﷺ بتعليمٍ إلهيٍّ وفتحٍ ربَّانيٍّ..

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

شَفاعةُ الرَّسُولِ لأُمَّته ﷺ

نتابع القوْلَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسـول الله ﷺ : (فَأَسْـتَأْذِنُ عَلَـى رَبِّى.. فَيُـؤْذَنُ لِى.. فَإذا أَنا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سـاجِدًا.. فَيَدَعُنِى ماشـاءَ اللهُ.. فَيُقالُ: [يامُحَمَّدُ.. اِرْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ.. سَلْ: تُعْطَهْ.. اِشْفَعْ: تُشَفَّعْ]

فَأَرْفَعُ رَأْسِـى، فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه رَبِّى.. ثُمَّ أَشْـفَعُ.. فَيَحُدُّ لِى حَدًّا.. فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ.. ثُمَّ أَعُودُ فَـأَقَعُ ساجِداً.. فَيَدَعُنِى ماشاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِى..

ثُمَّ يُقالُ : [اِرْفَعْ رَأْسَكَ يامُحَمَّدُ..

قُلْ: تُسْمَعْ، سَلْ: تُعْطَهْ.. اِشْفَعْ تُشَفَّعْ:

فَأَرْفَعُ رَأْسِـى، فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُـعَلِّمُنِيه، ثُمَّ أَشْـفَعُ.. فَيُحَدُّ لِى حَـدًّا.. فَأُخْـرِجُهُمْ مِنَ النَّـارِ، وَأُدْخِلُهُـمُ الجَنَّـةَ، قـالَ : فَلا أَدْرِى فِى الـثَّـالِـثَـةِ .. أَوِ الرَّابِعَةِ.. قـالَ: فَأَقُولُ: «يارَبِّى، مابَقِىَ فِى النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَـهُ الْـقُـرْآنُ، أَىْ: وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ» ..)

* * *

بَعد الشفاعةِ العُظْمَى لِفصلِ الخِطابِ بيْن الخلائق، والـمَقامِ المحمودِ لرسـولِ الله ﷺ الـذى يَحْمَـدُه فيه الأوَلـون والآخِرون: تبدأ شـفاعةُ الرسولِ لأُمَّتِه..

وتمـرُّ هذه الشـفاعةُ بمراحِلَ، فـي كلِّ مرحلةٍ يأخُذ الرسـولُ ﷺ مجموعـةً من أهـلِ النارِ ويُدْخِلُهم الجنَّةَ ويسـتمرُّ هكـذا مراتٍ ثلاثًا أو أربعًا، حتَّى لايَبْقَى فِي النَّارِ إلَّا من يخْلُد فيها وهُمُ الكُفَّار..

وجاءت روايَةٌ فى حديثِ الشَّفاعةِ العُظْمَى تُفيد أنَّ هناك مجموعة من أُمَّةِ الإسـلام، تسْبِق هذه المَراحِلَ، وتخْتَصُّ بالذين لاحساب عليْـهِمْ.. فيأخُذُهُمُ الرسولُ ﷺ مِنْ أهْلِ المحْشرِ إلَى الجنةِ مُباشرةً. وجاء فِى هذه الرِّواية أنَّ هؤلاءِ الذين لاحِسـابَ عليْهِمْ يدْخُلون الجنَّةَ من بابِها الأيْمَن وأنَّ هذا البابَ واسِـعٌ جدًّا.. قال عليه الصلاةُ والسـلامُ: (فَأَرْفَعُ رَأْسِـى فَأَقُـولُ: «يارَبِّ، أُمَّتِى أُمَّتِى.» فيُقالُ: [يامُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسـابَ عَلَيْهِ، مِنَ الْبـابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُـرَكاءُ النَّاسِ فِيما سِـوَى ذلِكَ مِنَ الأَبْوابِ] ..

والَّـذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إنَّ مابَيْنَ المِصْراعَينِ مِنْ مَصارِيعِ الجَنَّةِ: لَكَما بَـيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَما بَيْنَ مَكَّـةَ وَبُصْرَى.» والمِصراعُ: جانبُ البابِ.. وهَجَرَ: مَدينةٌ عظيمةٌ فى البحْرين وهى غيْرُ هَجَرَ المَشـهورةِ بصناعة القلالِ، فهى إحْدى قُرَى المدينةِ.. وبُصْرَى: مدينةٌ بيْنها وبيْن دِمَشْقَ ثلاثُ مراحِلَ وبيْنها وبيْنَ مكَّةَ مسيرَةُ شَهْرٍ..

الفصل الثانى

سَيِّدُ الشُّفَعاءِ

* أَوَّلُ شَفِيعٍ.
* الْفَاتِحُ الأَوَّلُ.
* الدَّعْوَةُ الْمُخَبَّأَةُ.
* «اَللَّهُمَّ : أُمَّتِى.. أُمَّتِى»
* عَدَدُ اَلْخَصائِص النَّبَوِيَّة.

أَوَّلُ شَفِيعٍ

أخرج مسلمٌ في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك، قال: قال النبيُّ ﷺ: «أنا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ ماصُدِّقْتُ، وإنَّ مِنَ الأَنْبِياءِ نَبِيًّا ما يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ.»

* * *

هذا الحديثُ الشريفُ يُبَيِّن نماذِجَ من فضلِ اللهِ تبارك وتعالَى على سَيِّدِنا محمدٍ ﷺ فهو أوَّل شفيع في الجنَّة، بمعنى أنه ﷺ أول طالبٍ للشفاعةِ، ليُدْخِلَ بهذه الشفاعةِ بعضَ أُمَّتِه إلى الْجَنَّة.

وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ أوَّل من يَقرع بابَ الْجَنَّة، بمعْنى أنه ﷺ يتقدَّم السابقين من أُمَّتِه ليفْتحَ لهمْ بابَ الْجَنَّةِ حتى يلِجُوا فيها. وعن كيفيةِ هذا القَرْعِ يقول عليْهِ الصلاةُ والسلامُ: «آتِي بابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخازِنُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَأَقُولُ: «مُحَمَّدٌ»، فَيَقُولُ: «بِكَ أُمِرْتُ، لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

ويسُوقُ النبيُّ ﷺ نَمُوذجًا آخرَ من فضلِ اللهِ تبارك وتعالَى عليْه: فهُوَ أَكْثرُ الأنبياءِ تبعًا، لأنه آخرُ الأنبياءِ، وصاحبُ الرِّسالةِ العامَّةِ الخالدةِ، إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليْها. فعَلَى مَدَى الأجيالِ والأزْمانِ والأماكنِ تتقلَّبُ الدعوةُ الإسلاميةُ نورًا وهدايةً...

وإذا كنَّا اليوم أكثرَ من مِلْيار مُسْلم فى مشارقِ الأرضِ ومغاربها، فكمْ كان المُسلمون بالأمسِ؟ وكم يكونونَ غدًا وإلى ماشاء الله؟!.

إنَّ ارتباطَ المسلمين بنبيِّهم ﷺ ارتباطٌ صحيحٌ لم يخرُجْ عن الحقِّ وأُصولِ الدين.. أمَّا ارتباطُ غيْرِ المُسلمين بأنبيائهم فهو ارتباط كاذبٌ يتبرّأ منه الأنبياء.. قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١).

ثُمَّ إنَّ الأنبياءَ السابقين كانتْ رسالتُهمْ محدودةً زمانًا ومكانًا، فكلُّ نبىٍّ بُعث إلى قومِه خاصَّة، وانتهتْ رسالتُه ببعثةِ النبىّ الذى بعده. فالذين آمنوا بالرُّسُلِ السابقين محْدُودون ولْنَنْظُرْ إلى نوح عليه الصلاة والسَّلامُ، وهو أطولُ الأنبياءِ عمرًا، ومَكثَ فى قومِه داعيًا ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاما، ومع ذلك فقد وصف القُرآن المجيدُ المُؤمنينَ به بأنَّهم قِلَّة، قال تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢).

(١) سورة النساء الآيات ١٥٠ = ١٥٢.
(٢) سورة هود الآية ٤٠.

اَلْفاتِحُ الأَوَّلُ

أخرج مُسلمٌ فى صحيحِه بسنده عن أنس بن مالك، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «آتِي بـابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَأَسْـتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخـازِنُ: «مَنْ أَنْتَ» فَأَقـولُ: «مُحَمَّدٌ.» فَيَقُولُ: «بِـكَ أُمِرْتُ .. لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ» .)

* * *

هذا مشهدٌ كريمٌ من مشاهدِ اليومِ الآخرِ يكون إعْلاءً لشأنِ نبِّينا محمدٍ صلَّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحْبِه وسَلَّم، وامتدادًا لصِدْقِ الوعدِ الإلهى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ (١).

لقـد تعـدّدت ألـوانُ الفضْلِ الإلهىِّ علـى محمدٍ ﷺ فى هـذا اليوْمِ المشهودِ، بدءًا بالشفاعةِ العُظمى، ومُرورًا بالحوْضِ الشريفِ والشَّفاعاتِ لأمَّةِ الإسلام، وانتِهاءً بهذا التشريفِ العظيم..

إنَّ سـيِّدَنا محمدًا ﷺ يأْتِى إلى الجنَّةِ ويتقدّم السابقين واللَّاحقينَ، وهُمْ جميعا تبعٌ له وخلْفَ لوائِه المَرفوعِ.. ويسـتفتِحُ، أى: يطلبُ فتْحَ أبـوابِ الْجَنَّةِ، كىْ يلِجَ المؤمنـون مِن أمَّـةِ الإسـلام ومِـنْ كافةِ الأمَمِ.. فالمُؤمنون يُساقون إلى الجنَّةِ جماعاتٍ جماعات، والكافِرون يُساقُون إلى جهنَّمَ جماعاتٍ جماعاتٍ.. لكِنْ شتَّانَ مابينَ الفريقين! ..

(١) سورة الشرح الآية ٤.

إنَّ سَـوْقَ الـمـؤمـنـين: فِى مـواكِـبِ النُّورِ، تحُفُّهـمْ ملائكَةُ الرحمةِ وإنَّ سَـوْقَ الكافِرين: فِى مَتاهاتِ الظـلْمةِ، تُطارِدُهم ملائكةُ العذابِ من كُلِّ جانب..

قال تبارك وتعالَى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (١).

وقال جلَّ شأنُه:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (٢).

وقال سُبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣).

وعندما تصلُ مواكبُ النُّورِ إلى أبوابِ الْجَنَّةِ يتقدَّمُهم الـمُصْطَفَى الأمينُ سَـيِّدُنا محمدٌ ﷺ، ويتسـاءَلُ خازنُ الجَنَّةِ عن هذا الـمُقَدَّم الـمُخْتار، فيقـولُ: «أنا مُحَمَّـدٌ» فيُعْلِنُ هذا الخازنُ أمامَ الأشـهادِ: «بِكَ أُمِرْتُ.. لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ.»

فيَفْتَحُ البابَ، ويتقدَّمُ الرسولُ الأعظمُ، وتتوالَى مواكِبُ النور.

---

(١) سورة الزمر الآية ٧١.

(٢) سورة الزمر الآية ٧٣.

(٣) سورة الحديد الآيات ١٢ - ١٣.

الدَّعْوَةُ الْمُخَبَّأَةُ

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.. فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شاءَ اللهُ - مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِي لايُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» ..

* * *

دُعاءُ الأنبياءِ كلُّه مُستجابٌ لأنهم أَقْربُ إلَى اللهِ تبارك وتعالَى، وأَكْثرُ عبادةً له سبحانه، وهُمُ الذين يُكرِّمُهم اللهُ أَمامَ أَقوامِهم بإجابةِ دُعائِهم، تصْديقًا لهم فِي نُبُوَّتِهم..

فماذا يعْنِي - إذن - قَوْلِه: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوةٌ مُسْتجابَةٌ» ؟ هل هي دعوةٌ واحدةٌ مُستجابةٌ، وباقي الدّعواتِ لايُستجاب لها ؟!

ذهب العلماءُ إلَى أَنَّ مقصودَ الحديثِ الدعوةُ المُتيقَّنَة، فلكلِّ نبيٍّ دعوةٌ يَقطعُ باستجابةِ اللهِ تبارك وتعالَى له فيها.. أَمَّا باقي الدَّعواتِ فهي على رجاء الإجابةِ وليْس على القطع، أو أَنَّ المُراد: لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ عامَّةٌ فِي قوْمِه مُحقَّقة.. أما باقي الدَّعواتِ فقد تكون خاصةً لفردٍ أَوْ أَفراد..

وهذه الدعوة العامة المُتيقَّنة تعجَّلها الأنبياءُ السّابقون فى الدُّنيا،

ودعوْا بها على أقوامِهم المُكذِّبين، بعد أن طال العِنادُ واسْتحكمَ الفسادُ وتسلّط الكُبراءُ والطغاة..

فنوحٌ عليه الصَّلاةُ والسلام - بعد جهادٍ طويل ومرير - ما آمن معه إلا قليل، فدعا على قوْمه:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١).

واستجاب اللهُ الدعوةَ، فأمر نوحًا بصُنع السفينةِ وحمْلِ المُؤمنين فيها ثمَّ فتَح اللهُ السماءَ بماءٍ مُنهمر، وفجَّر الأرضَ عُيونًا.. وكان الموْجُ كالجبالِ، وقيلَ: بُعْدًا، أيْ: هَلاكًا لِلقوْمِ الظالمين.

وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام يئِس من إيمانِ فِرعَوْنَ وَقوْمِه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢).

وتمثّلت هذه الإجابةُ فى أنّ الغرَقَ أدْرك فِرعونَ وجنودَه، وغشِيَهم من اليمِّ ماغشِيَهم..

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة نوح الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة يونس الآيات ٨٨ -٨٩.

(٣) سورة الدخان الآية ٢٩.

وهكذا تعجّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه فى قَوْمِه. فماذا فعَل رسولُ الله ﷺ ؟!

إنَّ رسولَ الله ﷺ : أخّر دعوتَه العامَّةَ المُتيقَّنَةَ فى قوْمِهِ إلَى يوم القِيامَةِ، ولم يتعجّلْها فى الدُّنيا، وذلك لكمالِ شفقتِهِ ورحمتِهِ بأمّتِهِ، كما قال تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (١).

إنَّ دعوةَ الآخرةِ خيرٌ من دعوةِ الدُّنيا، فالآخرةُ خيْر وأبقى، وإنَّ الدعوةَ فِى الشِّدَّةِ أنفعُ من الدعوةِ فى الرّخاءِ؛ فوقتُ الشِّدةِ أحْوجُ الأوقاتِ إلَى الدُّعاء.. وهذه الدعوة النبويّة العامَّةُ تنالُ كلَّ المسلمين المُوَحِّدين، الذين أيقنتْ قُلوبُهم بوحدانيّةِ الله تبارك وتعالَى، ونُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ، والتصديقِ الجازِمِ بكلِّ ماعُلِم من الدِّين بالضّرورةِ: كالصلاةِ والصيام والزكاةِ والحجِّ وسائرِ المأمورات والمَنْهيّات.. فإذا مات الإنْسانُ على تلكَ العقيدةِ الصحيحةِ، فإنّ الشفاعةَ تَلْحَقُه، مهما كانت أعمالُه بعد ذلك..

وقد جاء فى بعض رواياتِ الصحيح: فَأقُولُ: «رَبِّ أُمَّتِى.. أُمَّتِى» فَيُقالُ: [انْطَلِقْ، فَمَنْ كانَ فِى قَلْبِهِ مِثقالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إيمانٍ، فَأخْرِجْهُ منها»

فالإيمانُ هو أساسُ الثّوابِ، ومن لا إيمانَ له فلا ثوابَ له، قال تبارك وتعالى فِى حقِّ الكافرين:

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

وهُنا نُؤكِّد أنَّ الشفاعةَ قد تُدرك المؤمنين، فلا يدخلون النّارَ بمعاصيهم، لحِكمةٍ يَعلمُها اللهُ تبارك وتعالَى، وقد تُدركُهم بعد أنْ يقضوا فِي النّارِ حِقبًا طويلةً أو قصيرةً.. وهذا ماتُؤكِّده الآيةُ الكريمةُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ (٢).

وصاغَ أَهْلُ الحقِّ هذا المعْنى فِي نَظْمٍ شِعْرِيٍّ هكذا:

وَواجِبٌ شَفاعَةُ الْمُشَفَّعِ ... مُحَمَّدٍ، مقدَّمًا لا تَمْنَعِ
وَغَيْرُهُ مِنْ مُرْتَضَى الأَخْيارِ ... يَشْفَعُ، كَما قَدْ جاءَ فِي الأَخْبارِ
إِذْ جائِزٌ غُفْرانُ غَيْرِ الْكُفْرِ ... فَلا نُكَفِّر مُؤْمِنًا بِالْوِزْرِ
وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ ... فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣.
(٢) سورة النساء الآية ١١٦.

اللَّهُمَّ: أُمَّتِى.. أُمَّتِى

أخرج مسلمُ فِى صحيحِه بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ عمْرو بنِ العاصِ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ فِى إبْراهِيم عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

وقولَ عيسى عليْه الصلاة والسلامُ:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فرفع يدَيْه وقال:

«اللَّهُمَّ: أُمَّتِى.. أُمَّتِى» وبكَى، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ:

[ياجِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ: مايُبْكِيكَ؟]

فأتاه جبريلُ عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ فسأله؛ فأخْبره رسولُ اللهِ ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال اللهُ: [ياجِبْرِيلُ.. اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوءُكَ..]

* * *

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

دُعاءُ إبْراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

كان النبيُّ ﷺ يقرأُ القرآنَ ويفْقَه معانيَهُ، ويُدْرِكُ مقاصِدَه، ويتفاعلُ معه، فيدْعُو في مواطنِ الدُّعاءِ، ويسْتعيذُ في مواطنِ العِقابِ، ويُسبِّح في مواطنِ التَّسْبيح وهكذا.

لقد تلا النبيُّ ﷺ دُعاءَ إبراهيمَ الخليلِ، الذي قصَّه القُرآنُ المجيدُ في قوْله جلّ شأنُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

فإبراهيمُ عليْه الصّلاة والسلامُ أراد الحفاظَ على البيئةِ، حتى تكون صالحةً للتربية، فقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (٢)

والأمنُ هو نعمةُ النِّعَم. وحين يأمَنُ الناسُ يعبدون ربَّهم، قِيامًا وقُعودًا وعلى جُنوبِهمْ، ويسْتَغْلنون بإيمانِهم، ويستطيعونَ أن يُمارِسوا حياتَهم الصحيحةَ الكاملةَ غير منْقوصة..

ثُمّ دعا إبراهيم عليْه الصلاة والسلامُ أنْ يَحْفظَهُ اللهُ وذُرِّيَّتَه، ويُباعِدَ بينهم وبين عبادةِ الأصنام، تلك العبادةُ التي تمْتَهِن كرامةَ الإنْسانِ، وتُضيع عِزَّتَه أمامَ أحجارٍ لاتنفعُ ولا تضُرُّ. وقد خُدِع بهذه العبادةِ أجْيالٌ من بني الإنسانِ، مُنْذ عهْدِ نوحٍ عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَى اليوْم،

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٥ - ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٥.

وانتشـرت الوثنيَة فِي أماكِنَ كثيرَةٍ، فِي مصـرَ القديمةِ وبلادِ الرافِدَيْنِ والشَّام والهند والصِّين وفارِسَ واليونانِ والرُّومانِ والجزيرةِ العربية..

وقد تبرَّأ إبراهيم عليه الصلاة والسـلامُ من هذا الانحرافِ العَقَدِيِّ، وردَّ أمْرَ المُنْحرفين الضَّالِّين إلَى اللهِ عَزّ وجلّ. إنْ شـاءَ عذَّبَهُمْ، وإنْ شاءَ عفا عنهم. فهو سـبحانه وتعالى صاحِبُ الخَلْقِ والأمر: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

دُعاءُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

دعا عِيسَى عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه قائلًا:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢)

فهذا مشـهدٌ من مشاهدِ القيامةِ يحْكيه القُرآنُ المَجيدُ. كأننا نراه رأْىَ العيْن، إنّ المشهدَ يقَعُ أمامَ الأوّلين والآخرين. ويبدأ بهذا النِّداءِ القُدْسيُ:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٣).

فيأتي الجوابُ الحقّ من النبيِّ المعصوم: عبد اللهِ ورسـوله عيسى ابن مرْيَـمَ: ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٣.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦.

ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١).

لقد قرأ سيِّدُنا محمدٌ ﷺ هذا الحِوارَ فِي هذا المَشهدِ، ووقف عند نِهايةِ حِوارِ عيسَى عليه الصلاةُ والسلامُ فِي قوله تبارك وتعالى:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

والمقصودُ من هذا التعبيرِ: رَدُّ الأمرِ كلِّه إلى اللهِ تبارك وتعالى، والتسليمُ المُطلقُ للمشيئةِ الإلهيَّةِ. وهو يلتقى مع دعاءِ إبراهيمَ الخليل عليه الصلاةُ والسلامُ فِى حقِّ عبدةِ الأصْنام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣).

وليس يُقصد من مثلِ هذه التعبيراتِ تجْويزُ مغفرةِ الكُفرِ، والعفْوِ عن الكافرين، مِنْ غيْرِ توبةٍ صادقةٍ فِى الدُّنيا..

إنّ اللهَ تبارك وتعالى وعَد بقبولِ توبةِ التَّائبين فِى هذه الدُّنيا، فقال جلّ شأنُه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ۖ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤).

وتوعَّد اللهُ سُبحانه وتعالَى من مات كافرًا بالخُلودِ الأبدىِّ فِى الجحيم، ولن تنفعَهم شفاعةُ الشَّافِعين، فقال جلَّ شأنُه:

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ - ١١٧.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنفال الآية ٣٨.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

دُعاءُ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ لأُمَّتِهِ

عرفْنا دُعاءَ إبراهيمَ وعيسى عليهما الصلاةُ والسَّلامُ لِمُخالِفيهِمْا، وأنَّهما فوَّضا الأمرَ للهِ عزَّ وجلّ، وقد قرأ الرسولُ ﷺ هذا الدعاءَ في القرآنِ الكريم، فماذا كان موْقِفُه ﷺ؟

يقول الرّاوي - كما أخرجه مسلمٌ في صحيحه :

فرفَع يديْه وقالَ: «اَللَّهُمَّ أُمَّتِي.. أُمَّتِي» ، وبكَى..

لقد أدْرك الرسول ﷺ خُطُورةَ الموْقِفِ وشِدّةَ الهوْلِ وعِظَمَ الخَطْبِ، وأجْهش بالبُكاءِ، وجارَ إلَى اللهِ بالدُّعاء : «اَللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» .. يريد الرحمةَ الكاملةَ لأمّتِه، ويُشفِق عليْها من بأسِ اللهِ وعِقابِه..

حينئذٍ بعَث الله تبارك وتعالى مَلَكَ الوحْيِ جِبْريلَ الأمينَ إلَى رسولِه الكريم، وحمّله هذِه الرِّسالةَ:

[ياجِبْريلُ: اِذْهَبْ إلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ: مايُبْكِيكَ؟]

فنزلَ جبريلُ. وسألَ المُصْطفَى عن سرِّ بُكائِه أثناءَ دُعائِه، فأفْضَى

(١) سورة النساء الآيات ١٧ - ١٨.

إليْهِ الرسـولُ ﷺ بما اسْتَشْعره فِي قلبه على أُمَّتِه.. ورجَع جبريلُ إلَى ربِّه – عزَّ وجلَّ – حاملاً دُعاءُ النبيِّ ﷺ لأُمَّتِه، فجاء جبريلُ بالبُشرى وحمل وعْدًا إلاهيًّا، نصُّه هكذا:

[اِذْهَبْ إلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إنَّا سَنُرضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوءُكَ] .

وهذا الوعدُ الإلهيُّ يلْتقي مع الآيةِ الكريمةِ:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ (١).

فعطاءُ الله تبارك وتعالى لرسوله في نفسهِ وفي أُمَّتِه، ففِي نفسه: فهوَ الرسولُ الخاتَمُ، وسيِّدُ ولدِ آدمَ، وأوّل شافعٍ، وأوّلُ مُشَفَّعٍ.. وفِي أُمَّتِه: فهِـيَ خيْرُ أُمَّةٍ أُخرِجـت للناس، ولنْ يُخَلِّدَ أحدٌ منهـاً فِي النَّار، كما جاء فـي صحيح الحديث: «لِـكُلِّ نَبِيٍّ دَعْـوَةٌ مُسْـتَجابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ.. وَإنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَـفاعَةً لأمَتِي يَوْمَ القِيامَةِ؛ فَهِيَ نائِلَةٌ – إنْ شاءَ الله – مَنْ ماتَ مِن أمَّتِي، لايُشْرِكُ بِالله شَيْئًا».

ولاشـكَّ أنَّ ربَّنا جلَّ جلالُه يَعلم السِّـر وأخْفَى؛ لكنّ المسـألةَ جرَتْ على هذا المِنوالِ، من السـؤالِ والجوابِ، والذهابِ والمجيءِ، لإظهارِ شـرَفِ الرسـولِ ﷺ، وأنّ له مكـانةً سـاميةً ومنزلةً رفيعةً عند ربِّه تبارَك وتعالَى؛ وأنه ﷺ يُسـتْرضَى ويُكرَّم.. وهذه المنزلة لرسولنا ﷺ تدفعُ المسـلمَ إلَى مزيد الولاءِ لله ولرسـوله ﷺ، وإلى حُسنِ الاقتداءِ بهذا النبيِّ العظيمِ وذلك الرسولِ المُشَفَّع..

---

(١) سورة الضحى الآية ٥.

عَدَدُ الْخَصائِصِ النَّبَوِيَّة

أخرج البخارِيُّ فِي صحيحِهِ بسنده عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أَنَّ النبيَ ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ، وَكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً» ..

* * *

يذكرُ هذا الحديثُ الشريفُ بعضَ خصائصِ المُصْطفى ﷺ، تلك الخصائصِ التى جمعها الله تبارك وتعالى له، ولم تتحقَّق لنبيٍّ قبْلَه مُفْرَدةً ولا مجتمعةً..

والحديث هنا يذكر خمسا، هى:

١ - النَّصْرُ بالرُّعب مسيرةَ شَهر.

٢ - جعْلُ الأرضِ مسجدًا وطَهورًا.

٣ - حِلُّ الغَنائِم.

٤ - إعْطاءُ الشَّفاعةِ.

٥ - عُمومُ الرِّسالةِ.

وجاءتْ أحاديثُ أُخرى بخصائصَ تشترِكُ مع هذه، وتزيدُ عليها.
ومِن خِلالِ الزِّيادات الحديثيةِ المرويّةِ فِي الصحيحيْن، نسوقُ أربعًا أُخرى هي:

١ - إعْطاءُ جوامِعِ الكَلِم.
٢ - خَتْمُ النُّبُوَّةِ.
٣ - صُفوف صَلاتِنا كصُفوفِ الملائكةِ.
٤ - الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ مِنْ كَنْزٍ تحْت العرشِ.

ففي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِياءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ.»

وفي صحيح مُسْلم عَنْ حُذَيْفَةَ، قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِثَلاثٍ خِصالٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنا كَصُفُوفِ الْمَلائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى وَلَمْ يُسَمِّها.

وقد فُسِّرتْ هذه الخَصلةُ الأُخرى في رواياتٍ للنَّسائيِّ وابْنِ خُزَيْمَةَ، بأَنَّها: «أُعْطِيتُ هذِهِ الْآياتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وجاءتْ رِواياتُ السُّنَنِ والمسانيدِ تُضيف سبْعَ خصائصَ أُخرى، وهي:

١ - إعْطاءُ مَفاتِيحِ الأَرْضِ.
٢ - تَسْمِيَتُهُ ﷺ أَحْمَدَ.
٣ - أُمَّتُهُ خَيْرُ الأُمَمِ.
٤ - مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ: ماتَقَدَّمَ وماتَأَخَّرَ.
٥ - إعْطاؤُهُ الْكَوْثَرَ.
٦ - صاحِبُ لِواءِ الْحَمْدِ.
٧ - إسْلامُ الشَّيْطانِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ.

قال الإمامُ ابنُ حجَر: ويُمكِن أن يوجدَ أكْثرُ مِنْ ذلك لِمن أَمْعَن التَّتَبُّعَ. وقد ذكر أبو سعيدٍ النيسابورى فِى كتابِ «شَرَفُ الْمُصطَفى» أَنَّ عددَ الذى اخْتُصَّ بهِ نبيُّنا ﷺ عن الأنبياءِ سِتُّون خَصْلة.

وهذه الخصائصُ الخَمْسُ التى قدّمها الحديثُ الشريف لم يمنحْها اللهُ تبارك وتعالَى لنبيٍّ قبْلَ رسولِ اللهِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وهى:

الأولَى: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» :أَى: إنّ اللهَ تعالَى يقذِف فِى قُلوبِ أعداءِ الرسولِ الرُّعْبَ، فيجْبُنون عن مُلاقاتِه، ويفرُّون عن مُواجهتِه، مع بُعد المسافةِ بيْنَهُما، فهُناك معاركُ حربيةٌ قاتل فيها الرسولُ ﷺ، وهُناك معاركُ أُخْرى اسْتَسْلم فِيها الأعداءُ دون قِتال..

وَعَلَى سبيل المِثالِ، فإنَّ غزْوةَ تبوكٍ فِى العام التاسِع للهجْرةِ انتهتْ بتفرُّقِ الرُّومِ رُعْبًا من المسلمين، وحقَّق الرسولُ ﷺ نصرًا عظيمًا فِى أرضِ الشام..

الثانية : «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا» : فالمُسلم يُصلِّى حيث أدركته الصلاةُ في أيِّ بُقْعةٍ من أرض الله الواسعة. فالأصلُ في الأرض الطهارةُ حتى يَثْبُتَ العكْسُ. وإذا فقد المُسْلمُ الماءَ: حِسًّا أو معنًى للوضوء أو الغسل، تيمّم صعيدًا طيبًا..

أما غير المسلم فترتبط عباداتُهم بأماكنَ خاصةٍ يُشَيِّدونها، ولاتجوزُ في غيرها.

الثالثة : «وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي» : وذلك لأن اللهَ تبارك وتعالى شرَع الجهادَ في الإسلام وأذِن في ردِّ العُدوان. وغالبًا تنتهي المعاركُ بغنائمَ يتركُها المهزومُ كالسِّلاح والعَتاد والأموالِ، فهذه تُعَدُّ غنيمةً للمُنتصر، وقد قسّمها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١).

أما الأنبياءُ السابقون فبعضُهم لم يُقاتِل، ولم يُشْرَعْ لهم الجهادُ: كهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وزكريا ويحْيَىٰ وعيسَى.. وبعضُهمْ قاتلَ وجاهَدَ ولم تحِلَّ لهم الغنائم، بل كانت تُتْرَكُ حيث هي وتُحرق، كموسَى وداوُدَ وسُلَيْمان.. عليهم الصلاةُ والسلام.

الرابعة : «وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ.» : والمُرادُ بها الشفاعةُ العُظْمَى لفصل الخِطاب بيْن الخلائق أجْمعينَ، حتى يستريحَ الخَلْقُ من أهوالِ الموقِف ثم تتوالَى بعد ذلك الشَّفاعاتُ الصُّغرى للأنبياءِ والأوْلياءِ والصَّالِحين.

(١) سورة الأنفال الآية ٤١.

الخامسة: «وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً»: فرسالةُ الإسلام عامّةٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ من الإنْسِ والجِنِّ، وهى تتخطَّى حُجُبَ الزمانِ والمَكانِ إِلَى أَنْ يرثَ اللهُ تبارَك وتعالَى الأَرضَ ومن عليها..

الفصل الثالث

الشُّفعاءُ عِنْدَ الله تبارَك وتعالَى

* عِبادُ الرَّحْمنِ.
* شَفاعَةُ الشَّهِيد.
* شَفاعَةُ قارئ القُرْآن.
* شَفاعَةُ الـمُصَلِّين عَلَى الْجَنازَة.
* شَفاعَةُ القُرْآن.
* شَفاعَةُ سُورَتَي : الْبَقَرَة وآلِ عِمْرانَ.
* شَفاعَةُ سُورة الْـمُلْك.
* شَفاعَةُ الْأَذان.
* شَفاعَةُ الصِّيام.

عِبادُ الرَّحْمنِ

أخرج مُسْلِمٌ فِي صحيحِه حديثًا مُطَوَّلًا فِي الشفاعةِ، رواه أَبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ، جاء فيه: (يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجلّ: [شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ] ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْها قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ).

* * *

الشفاعةُ عِنْد اللهِ تبارك وتعالى ليستْ كالشفاعةِ عند البَشَرِ، فاللهُ تبارك وتعالى لايَشْفَعُه أَحَدٌ، فلا يُضَمُّ إِلَى شيْءٍ، ولايُضَمُّ إِلَيْهِ شيْءٌ، فهو سُبحانهُ وتعالَى وِتْرٌ، ولايَشْفَع عند اللهِ أحدٌ إِلا بإِذْنِه.

وقَبولُ الشفاعةِ: تكريمٌ من اللهِ تعالَى للشُّفَعاء، وبيانٌ لحُسْن منزلتهم عند الله تبارَك وتعالَى. فالشفاعةُ ابتداءً وانتهاءً لله عزَّ وجلّ.

قال سُبحانه وتعالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (١).

والشفعاءُ عند اللهِ هُم الملائِكَةُ والنبيُّون والمؤمنون. وتبدأُ شفاعةُ هؤلاء بعد أَنْ يتحمّل سيِّدُنا محمدٌ ﷺ الشفاعةَ العُظْمَى.. كي يبدأَ فصلُ الخِطابِ بيْنَ الخلائِقِ؛ فيكونَ هذا النبيُّ العظيمُ أَوّلَ شافِعٍ، أَى: طالبِ

(١) سورة الزمر الآية ٤٤.

للشفاعَة، وأَوَّلَ مُشـفَّع، أى: مقبولَ الشفاعةِ... وتتوالَى الشَّفاعاتُ بعد ذلك، كلٌ فيما يُحبُ رَبُنا ويرْضَى...

الملائكةُ تَشْـفَعُ للمُؤمنين الصَّالحين، والأنبياءُ يَشْفَعُون فِى أَقوامِهم، والـمُؤمنون يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لبعض..

وإذا انتهى هؤلاءِ جميعًا من شـفاعاتِهم التـى ارتضاها اللهُ عزّ وجلّ وأَذِنَ لهـم فيها، تظَلُّ فِى جهنَم طوائفُ من الخلائِق لم تنَلْهُم شـفاعةُ الشافِعين.. وهذه الطوائفُ من الـمُؤمنين، إلَّا إنّ إيمانَهم ويقينَهم تجرّد عن العملِ الصالحِ؛ فاستحقُّوا أَحْقابا يقضُونها فِى النَّارِ..

هـؤلاء المؤمنون الذيـن لم يعملوا خيرًا قطُ، ولم تشـملهم شـفاعة الشـافعين.. تتداركُهُـم فِى النهايةِ رَحْمةُ اللهِ عـزَّ وجلَّ فيَخْرُجون من النَّارِ، ويَدْخُلون الْجَنَّةَ؛ ويُعْرَفون بيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بأَنَّهمْ عُتَقاءُ اللهِ..

إنَّ ميـزانَ العدلِ الإلهىِّ دقيقٌ، لايظلِم مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وليْس من حقِّ أَحدٍ أَنْ يُهَوِّنَ مِنْ أمرِ المعصيةِ، اتِّكالًا عَلَى الشفاعةِ، فإنّ الشفاعةَ ليستْ خاضعَةً لأَهْـواءِ البشـرِ، ولاتنْفِى العـذابَ الـمُؤقَّت، ولاتَعْنِى الفـوزَ بالْجَنَّةِ - ابتداءً - لكلِّ أَحدٍ.. فالحديثُ الشريفُ الذى معنا يُثْبِت أَنَّ هؤلاءِ العُتَقاءَ قدْ قَضَوْا فِى النَّارِ أَحْقابًا كثيرةً حتى تدارَكتْهُمْ رحمةُ الرَّحْمن..

شفاعةُ الشَّهيد

أخرج أبو داود وابن حبان بإسنادهما عن أبى الدرداء - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

الشَّهيدُ يَشْفَعُ فِى سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ..

***

للشهيد منزلة رفيعة فى الإسلام، فهو إنسان قدَّم نفسَه فداء لدينه وأُمَّتِه. وقاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ودافع عن العرض والكرامة حتى قتل.. وقد جعل الله الشهيد فى أعلى درجات الجنة، وامتنَّ عليه بنعم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وخصَّه بحياةٍ برزخية متميزة، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ - ١٧١.

ولعِظَم هذه المنزلة قال ﷺ : (والَّذِى نَفسِى بِيَدِهِ: لَوَدِدْتُ أَنِّى أُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيا فأُقْتَلُ، ثُمَّ أَحيا فأُقْتَلُ)..

ولقد كان الصحابة رضىَ اللهُ عنهم يؤثرون الجهادَ على كلِّ مُتَع الحياةِ، حتى لقد خرج أحدُهمْ ليلةَ عُرْسِه لمّا سمع النِّداء بالجهادِ، فمات شهيدًا، فغسّلتْه الملائكة..

والشهيدُ مُقدّم عند الله تبارك وتعالى وله شفاعةٌ فى أهله الذين جمعَهم به الإيمانُ وشملَتْهم كلمةُ التوحيد. وفى حديثٍ رواه أحمدُ بإسنادٍ حسنٍ عن عُبادةَ بنِ الصّامتِ ﷺ، عن النبىِّ ﷺ قال : «إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سَبْعَ خِصالٍ: أَنْ يَغْفِرَ لَهُ فِى أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمانِ، وَيُجارَ مِنْ عَذابِ الْقَبرِ، وَيأْمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تاجُ الْوَقارِ، الياقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمافيها، وَيُزَوَّجَ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ العِينِ، وَيَشْفَعَ فِى سَبْعِينَ مِنْ أَقارِبِهِ.

وهذه الشفاعةُ للشهيدِ هى فِى إطارها الشرعىِّ، فهى بإذنِ اللهِ، ولمن يَرضَى عنه اللهُ، وهى خاصةٌ بجماعةِ المؤمنين.. قال تبارك وتعالى:

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (١).

وقال جَلَّ شأنُه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٨.

شَفاعةُ قارئ الْقُرْآنِ

أخرج الترمذيُّ وابن ماجه بإسنادِهما عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ، فَأَحَلَّ حلالَهُ وَحَرَّمَ حَرامَهُ: أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشَرةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ»

* * *

من معالم الحياةِ الإسلاميةِ حِفظُ القرآنِ وتحفيظُهُ، كيْ تتواصلَ السلسةُ المُتَواتِرَةُ بنقلِ القرآنِ المجيدِ فِي أجْيالِ الأمَّةِ سليمًا من التحريفِ، بعيدًا عن التَّبْديلِ والتَّغْيير، تحقيقًا لِوَعْدِ الله فِي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (١).

ثُمَّ إنّ الأمَّةَ تَرْتهنُ سعادتُها فِي الأولى والآخرةِ بالولاءِ لهذا الكتابِ الخالدِ، فهو ذِكْرُها وشرَفُها، قال تبارَك وتعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ۝٤٤﴾ (٢).

وقال جلَّ شأنُه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ (٣).

(١) سورة الحجر الآية ٩.
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤.
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠.

وقـارئُ القرآنِ العاملُ بـهِ، الـمُلْتزمُ بأحْكامِـه، الـمُعتزُّ بدينِهِ. له منزلـةٌ رفيعةٌ عند اللهِ عزَّ وجلَّ، فهو يدْخُـلُ الْجَنَّةَ مكَرَّمًا، ويعلو في درجاتِها بقدرِ مايحْفظ. ففي حديثٍ رواه أبو داودَ وابنُ حبّانَ والترمذيُّ وقال حسـن صحيح.. قال عليه الصلاة والسـلام: «يُقالُ لصاحِبِ القُرْآنِ اقْـرَأْ وارْقَ، وَرَتِّـلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّـلُ في الدُّنْيا؛ فَـإنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُها».

ومن تكريمِ اللهِ تباركَ وتعالى لِقارئِ القرآنِ أنْ يمنحَه شـفاعةً مقبولةً لجماعـةٍ من أهْلِ بيْتِهِ، كلُّهم قد وجبتْ لهُـمُ النَّارُ.. أي إنهم ارتكبوا معاصِـيَ يترتب عليْها وعيدٌ إلهي، لكنَّ هـذِه المعاصيَ لم تُخرجْهمْ عن دائـرةِ الإيمان، فإنَّ الكافِرَ مُخَلَّدٌ في جهنَّـم، لايموتُ فيها ولايحْيا.. أمّا العاصي فيسـتحقُّ العذابَ بقدرِ معصيتِه، ثـم يُعَذَّبُ عذابًا مؤقَّتًا، وقد يعْفو اللهُ عزَّ وجلَّ لحكمةٍ يعْلمُها..

هنا يأتي قارئُ القرآن الـمُسـتظهر له، أي: الحافظُ لآياتِهِ، والذي يُحِلّ حلالَه ويُحرِّم حرامَهُ، أي: الـمُلتزمُ بالأحكام الشـرعيةِ، فيَشْفَعُ في عشـرةٍ مـن أهلِه، بعد أنْ يـأذنَ اللهُ ويرضى. وتكونُ هذه الشـفاعةُ مقبولةً إمّا بالعفوِ الـمُطلقِ، وإما بإخراجِهم مِن العذابِ الـمُؤقتِ، وذلك على سبيلِ التكريمِ لحمَلةِ القرآنِ والإعلاءِ من شأنِهم..

شَفاعَةُ الْـمُصَلِّينَ عَلَى الْجَنازَة

أخرج مسلمٌ فى صحيحه، بسنده عن عائشة رضِىَ اللهُ عنها، عن النبىِّ ﷺ قال:

«ما مِنْ مَيِّت تُصَلِّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ: إلَّا شُفِّعُوا فِيهِ».

***

للمسلِم حُقوقٌ على مجتمعه: حيًّا ومَيِّتًا. وكرامةُ الإنْسانِ فِى حالِ موْته ككرامَتِه فِى حالِ حياتِه..

وإذا كان الناسُ يستقْبلون الإنْسانَ الوليدَ بفرحٍ غامرٍ، فإنه يجب عليْهِمْ توديعُه فِى نِهايةِ حياتِه بدُعاءٍ خالِصٍ..

وقد شرَع الإسلامُ صلاةَ الجنازةِ على الميِّت. وهِى أرْبَعُ تكْبيراتٍ بلا رُكوعٍ ولا سُجودٍ، يقرأ عقِبَ التكبيرةِ الأولى سورةَ الفاتحةِ، ويُصَلِّى على النبىِّ ﷺ عقِبَ الثانيةِ، ويدْعُو للمَيِّتِ عقِبَ الثالِثةِ، ثُمَّ يقولُ فِى الرابعةِ: اللَّهُمَّ لاتحْرِمْنا أجْرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ، واغْفِرْ لَنا وَلَهُ» ثمَّ يُسَلِّم..

وللصلاةِ على الجنازةِ وتشييعِها فضلٌ كبيرٌ.. وفِى صحيح مُسْلِم بسنده عنْ أبى هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْها: فَلَهُ قِيراطٌ، وَمَنْ شَهِدَها حَتَّى تُدْفَنَ: فَلَهُ قِيراطانِ».

قِيلَ وما القيراطانِ؟ قال: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ» ..

والقيراط مقدارٌ من الثوابِ معلومٌ عند اللهِ عزّ وجلّ..

والذين يُصَلُّون على الـمَيِّتِ ويدْعُون له: إنَّما هم شُـفعاءُ لهذا الـميِّتِ عنـد اللهِ تبـارك وتعالَى، فإذا اسـتجاب اللهُ دُعاءَهُم فقد شـفَّعهم فيه، أَى: قبلَ شفاعتَهم؛ فغفر للميِّت ورفع درجاتهِ في النعيم الـمُقيم..

والحديـث الذى معنا يصـل بعددِ الـمُصَلِّين الشُّـفعاء إِلَى مِائةٍ، لكن جاءتْ روايةٌ أُخرى فى صحيح مسلم بسنده عن ابن عباس قال: سمِعْتُ رسـولَ الله ﷺ يقولُ: ما مِنْ رَجُلٍ مُـسْـلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لايُشْرِكُونَ باللهِ شَيئًا: إِلَّا شَفَّعَهُم اللهُ فِيهِ» .

وجاءت رواياتٌ فى السُّـنن تجعل الشـفاعة لثلاثةِ صفوفٍ قلَّ العددُ أَوْ كَثُرَ، وللعلمـاء توجيهاتٌ لهذه الرواياتِ منها: أَنَّ العددَ لامفهومَ لـه، والمُـراد هو الكثـرةُ مطلقًا دون التقيُّـدِ بعددٍ مُعـيَّن، وأن تعدُّد الرواياتِ نشأ مِنْ تعدُّدِ التسـاؤلاتِ، فأجابَ الرسولُ ﷺ كلَّ سائِلٍ بما يُناسِبُه. ولا يَلْزَم من قبولِ الشفاعةِ من مائةٍ عدمُ قبولها مما دون ذلِكَ.. فكلُّ من صلَّى على الـمَيِّتِ فهو داعٍ له وشـفيعٌ لـه. وقد وعد اللهُ ووعْدُه الحَقُّ – أَنْ يقبلَ الدُّعاءَ مِنْ عبادِه الصالِحين..

فالدعاءُ للميِّتِ هو لوْنٌ من الشفاعةِ المقبولةِ عند اللهِ عزَّ وجلّ.

شفاعةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ

أخرج مسلمٌ في صحيحه عن أبي أُمامةَ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ».

***

قراءةُ القرآنِ مِنَ القُرُباتِ التي يعظُم ثوابُها عند اللهِ تبارَك وتعالَى، لأنها عِلْمٌ وعملٌ، ذِكْرٌ وعِبادةٌ، دُعاءٌ ومُناجاة..

فقراءةُ القرآنِ تُصحِّح العقيدةَ، وتُبَيِّن صالحَ الأعمالِ، وتصلُ القلبَ باللهِ، وتجعلُ اللِّسانَ رطْبًا بذِكْرِ الله، وتدفع المسلمَ إلَى الضراعةِ الخاشعةِ للهِ، ولهذا جاء في حديثٍ رواه الحاكمُ وصحّحه:

«إِنَّ هذا الْقُرْآنَ: مَأْدُبَةُ اللهِ، فاقْبَلُوا مَأْدُبَتَهُ ما اسْتَطَعْتُم.. إِنَّ هذا القُرْآنَ: حَبْلُ اللهِ المتين، والنُّورُ الْمُبِينُ، والشِّفاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَن اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَنَجاةٌ لِمَن اتَّبَعَهُ، لايَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ.. اتْلُوهُ، فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلى تِلاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَناتٍ.. أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ: (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ، وَلامٌ، وَمِيمٌ».

وفى حديثٍ رواه الترمذىُّ وقال حسن صحيح: «مَنْ قَرأَ حَرْفًا مِنْ كتابِ اللهِ: فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثالِها.. لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ: حَرْفٌ، وَلامٌ: حَرْفٌ، وَمِيمٌ: حَرْفٌ.

وشفاعةُ القرآنِ المجيدِ لأصحابه يوْمَ القيامةِ تظاهرتْ عليها نُصوصُ الأحاديثِ.أمَا كيْفِيَّة هذه الشفاعةِ وحقيقتُها، وَمُناجاةُ القرآنِ للهِ عزَّ وجلَّ: ممَا نُفوِّض عِلْمَه إلَى الخَلَّاقِ العلِيم.

ونُؤكِّد أَنَ شفاعةَ القرآنِ تَعْنِى فِى النِّهايةِ مايمْنحُه اللهُ لقارئِ القرآنِ من ثوابٍ عظيمٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ ونِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى..

وفِى حديثٍ رواه ابنُ حِبَّان عَن جابرٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اَلْقُرْآنُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ.. مَنْ جعَلَهُ أَمامَهُ، قادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ: ساقَهُ إِلَى النَّارِ».

فالقرآنُ شافِعٌ، أى: طالبٌ للشفاعة لأهْلِه، ومُشَفَّعٌ، أَىْ: مَقْبُولُ الشَّفاعةِ عند اللهِ عزّ وجلّ، وما حِلٌ، أَى: ساعٍ إِلَى الخيرِ، أو: خصمٌ مُجادلٌ عن صاحبِه، ومُصَدَّقٌ، أَى: يُصدِّقه اللهُ فيما يقولهُ عن حمَلَةِ القرآنِ المُعَظِّمين لشعائرِ اللهِ تبارك وتعالَى.

* * *

شَفاعةُ سُورَتَي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرانَ

أخرج مسلمٌ فِي صحيحِه بسندِه عن أبي أُمامة الباهِلِيّ، قالَ: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اِقْرَأوا الزَّهْراوَيْنِ: اَلبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرانَ؛ فَإنَّهُما تَأْتيانِ يَوْمَ الْقِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ أوْ كَأنَّهما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوافَّ: تُحاجَّانِ عَنْ أَصْحابِهِما».

***

لسورتي البقرة وآلِ عِمْرانَ فضلٌ خاصٌّ ومنزلةٌ كريمةٌ؛ فهما تُسمّيان الزَّهْراوَيْنِ، لكثرةِ نُورهما، وعِظَم هدايتِهما، واشتِمالِهما على أُمورِ الدِّينِ وعقائدِ التوحيدِ وأحكامِ التشريعِ بتفصيلٍ كبيرٍ..

وعندما يقرأُ المسلمُ القرآنَ المجيدَ ويتأمل هاتَيْنِ السُّورتَيْنِ تعظُمُ فِي نفسه نعمةُ اللهِ عليه، ويُشْرِق قلبُه بنورِ الله؛ فيتعلّم ما يسْعَد به فِي الدُّنيا والآخرةِ. وقد اشتملتْ سورةُ البقرةِ على أعظمِ آيةٍ فِي القرآنِ وهي آيةُ الكرسِيِّ، وأطولِ آيةٍ وهي آيةُ المُداينَة، ونزلَتِ الآيتانِ الأخيرتانِ فى سورةِ البقرةِ من كنزٍ تحت عرشِ الرحمنِ، ومن قرأهُما فِي ليلةٍ كَفَتاه.

وسورةُ آلِ عِمْرانَ تحْكِي تاريخَ المُسْلمين فى بدْرٍ وأُحُدٍ، وتُحدّد علاقةَ المُسْلمين بأَهْلِ الكتابِ، وتتحدّث عن فريقيْنِ مُتقابلينِ بينهُما بُعد المشرقيْنِ هما: المُنافِقون الذين قالوا لإخْوانِهِمْ وَقَعَدوا لَوْ أَطاعُونا

مـا قُتِلُوا.. والشُّـهداءُ الذينَ قال لَهُـمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيمانًا، وَقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الْوَكيلُ..

وكانت الآياتُ العَشْرُ فِي ختام سورةِ آلِ عمرانَ يقومِ بها النبيُّ ليْلا، وينظُر فِي السـماءِ ويقرؤها ثم يقولُ: «وَيْلٌ لِـمَـنْ يَقْرَأ هذِهِ الآياتِ، ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّـرْ» : ثُـمَّ يبْكى ويدعو اللهَ قائلا: اَللَّهُمَّ اجْعَـلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِـي سَمْعِي نُورًا، وَفِـي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُـورًا، وعَنْ شِمالِي نُـورًا، وَمِـنْ بَيْنِ يَـدَيَّ نُـورًا، وَمِنْ خَلْفِي نـورًا ، وَمِـنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» .

وهاتانِ السورتانِ تأتيانِ يوْمَ القيامةِ شافِعتيْن لأصحابِهما. والتعبيرُ بالصُّحبةِ يدلُّ على كَثْرةِ الـمُلازمةِ فى التِّلاوةِ والتأمُّلِ والعملِ والالتزام. هاتانِ السورتانِ ضرَبَ الرسولُ الكريمُ لهما ثلاثةَ أمثلةٍ «كَأَنَّهما غَمامَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُمـا غَيايتَـانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقـانِ مِنْ طَيْرٍ صَـوافَّ» والغَمامَتان والغَيايتان: كُلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسانَ فَوْقَ رأسِه، والفِرْقانِ: الجماعتان..

تتقدّم هاتانِ السورتانِ بهذا الشكل، تُدافِعان عن صاحبِهما وتَشْفعانِ له عند اللهِ عزّ وجلّ، ويجعلُهما اللهُ تنْطِقانِ بما كان يقوم به المسـلمُ: من عنايةٍ بالقرآنِ ورعايةٍ لآدابه والتزام بأحكامِه؛ فيقبل اللهُ تبارك وتعالَى شفاعتَهما، ويُحقِّق لصاحبِهما فوْزًا وفضلًا عظيمًا ..

شَفاعةُ سُورَةِ الْمُلْك

روى أبو داود والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسن، عن أبى هريرةَ ﷺ، قال: قال ﷺ: «مِنَ القُرْآنِ سُورَةٌ، ثَلاثُونَ آيَةً: شَفَعَتْ لِرَجُلٍ، حتَّى غُفِرَ لَهُ» ..

* * *

من بركةِ القرآنِ أنه يشْفع لأصحابِه العاملين به المُلتزمين بأحكامِه، المُوفِينَ بعهدِ الله. وشفاعةُ القرآنِ قد تقعُ من القرآنِ كلِّه، أو من بعضِ سُوَرِه.. وجاءت الرواياتُ تُثبت الشفاعة لسورةِ البقرةِ وسورةِ آلِ عِمْرانَ.. وقد شرحنا ذلك فيما سبَق..

والحديث الذى بين أيدينا يُخبرُنا فيه الصادقُ المصدوقُ ﷺ بشفاعةِ سورةِ المُلْكِ. وهى سورةٌ مكِّيَة، عَدَدُ آياتِها ثلاثون، وتبدأ بتقديسِ اللهِ وتنزيهِه، وإثباتِ قُدرتِه المُطلقةِ وسُلطانِه العظيمِ على المُلكِ والمَلَكوتِ. قال تبارك وتعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ (١)

وتسْمو بفعلِ الإنسانِ إلى آفاقِ الماضى والحاضرِ والمُستقبل، وتبسطُ أمام ناظِرَيْه آياتِ الأنفسِ والآفاق.. قال تبارك وتعالى:

(١) سورة الملك الآية ١.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (١).

وتدفعُ هذه السورةُ الكريمة الناسَ إلى المُسارعةِ إلى الخيْرِ والبرِّ والمعروفِ، قبْلَ أنْ يأتيَ يومٌ لامردَّ له من الله، يقِفُ فيه الكافرون موقفَ الهوانِ والحسْرة:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ۖ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (٢).

وتُعدِّدُ السورةُ نِعَمَ اللهِ في الخَلْقِ والرِّزقِ والإحياءِ والإماتةِ؛ لِتَصِلَ إلى جوْهرِ الحقيقةِ في إيجازٍ شديد:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣).

فالمبدأ من الله، والمرجعُ إلى الله، ولامجالَ لقوْلِ قائل:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤)

فالجوابُ حاضرٌ وبدَهِيٌّ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥)

فالموعدُ لن يُخلَفَ، ومُهِمَّة الرسول هي البلاغ.

والعاقلُ من استخدم نِعَمَ اللهِ في طاعةِ الله..

---

(١) سورة الملك الآية ٣.
(٢) سورة الملك الآية ١٠ - ١١.
(٣) سورة الملك الآية ٢٤.
(٤) سورة الملك الآية ٢٥.
(٥) سورة الملك الآية ٢٦.

وهكذا فإنّ تِلاوةَ سورةِ الـمُلكِ، والتأمُّلَ الواعِيَ فِى آياتِها، وانشراحَ الصَّدرِ بها - عمَلا وسُـلوكا - يجعلُ المسـلمَ محَلا لشفاعةِ هذه السورةِ الكريمةِ، وتقودُه حتى يغفرَ اللهُ له، وتُسْلِمُه إلَى الجنةِ ونعيمِها..

شَفاعَةُ الأَذانِ

أخرج البخارىُّ فى صحيحِهِ بسندِهِ عن المازنىِّ عن أبيه، أنه أخبره أن أبا سعيدٍ الخُدْرِىَّ قال له: إنِّى أَرَاكَ تُحِبُّ الغَنَمَ والبادِيَة، فإذا كُنْتَ فِى غَنَمِكَ - أَوْ بادِيَتِك - فَأَذَّنْتَ بِالصَّلاةِ، فارْفَعْ صَوْتَكَ بالنِّداءِ، فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ ولا إِنْسٌ، وَلا شَىْءٌ: إِلَا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ.. قال أبو سعيدٍ: سمعتُه من رسولِ الله ﷺ.

* * *

أبو سعيدٍ الخُدْرِىُّ صحابِىٌّ جليلٌ قدّم نصيحةً لأحدِ إخوانِه المسلمين، عندما علم أنه يُحِبُّ الخلاءَ، لكوْنِه يرعى الغنمَ.. وقد يجُرُّه ذلك إلَى أماكنَ نائيةٍ. فأراد أبو سعيدٍ أن يُرشِدَ صاحبَه إلَى خيرٍ يجبُ أنْ يحرص عليه، وهو رفعُ الصوتِ بالأذانِ فِى تلكَ الأماكنِ البعيدةِ عن العُمران..

والأذانُ: حقُّ الوقتِ.. والإقامةُ: حقُّ الصلاةِ. أى إنّ الأذانَ للإعلام بدخولِ وقتِ الفريضةِ، فلا يتعددُ. فالأذانُ واحدٌ فى المسجدِ أو فى أى مكانٍ عند بدء الوقت. أمّا الإقامةُ فتتعددُ كلما تعدّدت الصلاةُ لمُنفردٍ أو لجماعة.

فراعى الغنم فى باديتِه يُؤَذِّنُ ويرفعُ الصوتَ بالأذانِ للإعلام بدخولِ وقتِ الصلاةِ، حتى ولو لم يحضُرْ أحدٌ ليصلّىَ معه، لأنَّ هناكَ حِكمةً

أخـرى بالغةً، وهى أنه لايسـمع مدى صـوتِ الـمُؤذِّن جِـنٌّ ولا إنسٌ ولا شَيْءٌ: إلَّا شهِد له يوْمَ القِيامةِ.

ومعنـى مدى صوتِ الـمُؤذِّنِ، أى: غايةِ صوْتِه ومُنتهَى مايصِل إليه، فإذا كان الأبْعدُ، وهو الذى يسـمع الصوتَ ضعيفًا، يشْهدُ للمؤذِّن؛ فإنَّ الأقربَ وهو الذى يسمعُ الصوْتَ قويًّا: يكونُ أوْلى بالشهادةِ..

والتعبيرُ بقوْلِه: «ولاشَيْءٌ» يشْمل الحجَر والشجَر والحيوانَ، فهو من العامِّ بعد الخاصِّ.. وهذه الشهادةُ من السامعين للأذانِ شهادةُ تكريم وشفاعةٌ للمؤذِّن، فهؤلاء السـامعون علـى تنوُّع أجناسِـهم وأنواعِهم - يُتقدَّمون شُـفعاءَ عند اللهِ عزَّ وجلّ؛ فيتقبلُ الشَّفاعةَ منهُمْ، وهو أعْلمُ بهم، ويتفضَّل سبُحانَه على الـمُؤذِّنين بمزيدِ الثَّوابِ والأجرِ والنعيم..

والشـهادةُ يوْمَ القيامةِ نوعانِ: شهادةٌ تفْضحُ وشهادةٌ ترْفعُ، فشهادةُ الـفَضْحِ كما فى قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

وشـهادةُ الرِّفعة والتكريم: كشـهادةِ القرآنِ لأهلِه، وشهادةِ الأذانِ لأصحابِه.

---

(١) سورة فصلت الآيات ١٩- ٢١.

شَفاعَةُ الصِّيامِ

روى أَحمدُ والطبرانيُّ والحاكمُ - وقال: صحيحٌ على شرط مسلم - عن عبدِ اللهِ بن عمرو رضي اللهُ عنهما: أَنّ النبيَّ ﷺ قال: «اَلصِّيامُ والْقُرْآنُ يَشْفَعانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصِّيامُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّرابَ بالنَّهارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ النَّوْمَ باللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.. فَيُشَفَّعانِ..»

* * *

الصِّيام فريضةٌ مُحكمة ارتبطتْ بشهر رمضان، ذلِكُمُ الشهر الكريم الذى تلقّى فيه الرسولُ ﷺ الوحْىَ الإلهىَّ، وتعاهدَه المُصطفى بمزيدِ العبادَةِ والطاعةِ للهِ عزّ وجلّ..

والصيامُ عبادةٌ لم يتقرّب بها أَحدٌ لغيرِ اللهِ تبارك وتعالَى، ولا يداخلها الرِّياءُ، وبها يتشبَّه المُسلم بالملأِ الأَعْلى الذين لايأكُلون ولايشربون ولا يتناسلون..

ولهذا خصّه الله تبارك وتعالى بمزيد الثوابِ والأجرِ، وأضافه إلى نفسِه العَلِيَّة. ففي صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضاعَفُ: الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثالِها إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.

قالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: [إلَّا الصَّوْمَ، فَإنَّهُ لِي، وأنا أَجْزِي بِهِ. يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعامَهُ مِنْ أجْلِي]، لِلصَّائِمِ فَرْحَتانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فطره، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلوفُ فَمِ الصائمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

هذا الصومُ إذا أدَّاه المُسلمُ بآدابِهِ وكمالاتِهِ يكونُ شفيعًا للصائمين يومَ القيامة، فيقِفُ الصومُ ليُدافعَ عن أهلِه، ويذْكُرَ محاسنَ أعمالِهم، ويُعدِّدَ فضائلَ سُلوكِهِمْ، ويقولَ بلسانٍ يعلمُه اللهُ تبارك وتعالَى وبكيفيَّةٍ يخلُقُها المَوْلَى جلَّ شأنُه، وبطريقةٍ ندعُها لِعلَّامِ الغُيوب: «رَبِّ، إنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّرابَ بالنَّهارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ.»

أي: يارَبِّ! اقبَلْ شفاعتي للصائمين، فأنا شهيدٌ على التزامِهم بأحكامِ الصيام.. ويستجيبُ اللهُ تبارك وتعالى لشفاعةِ الصِّيام، فيُنزِلُ سكينةً ورحمةً على الصائمينَ، ويُدخِلُهم الجنَّةَ من بابِ الرَّيانِ، ويرْفعُهم مكانًا عليًّا في الجِنانِ، ويُمِدُّهم بآلاءٍ ونِعَمٍ فوْقَ الوصفِ والخَيالِ..

كلُّ ذلك بتدبيرٍ إلهيٍّ وعِلمٍ أزلِيٍّ.. وليستْ الشفاعةُ مُفاجأةً للهِ ولا إلزامًا له سبحانه. فالشفاعةُ عندَ اللهِ ليستْ كالشفاعةِ عند البشرِ. والحِكمةُ من شفاعةِ الأعمالِ هي الترغيبُ في الصالحاتِ، وحثُّ المُكلَّفين على مُداومةِ الطَّاعاتِ..

***

الفصل الرابع

اَلفائِزُون بِالشَّفاعَةِ

* اَلْفائِزُونَ بِالْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسابٍ.
* اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ.
* إجابَةُ النِّداءِ.
* سُكْنَى الْمَدِينَةِ.
* مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَةِ.
* عُتَقاءُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى.
* إغْلاقُ الْأَبْوابِ.

اَلْفائزُونَ بالْجَنَّة بغَيْر حساب

أخرج الإمام مسلمٌ فِي صحيحِه بسندِه عنْ أَبِي هُرَيْرةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِساب.»

فقالَ رَجُلٌ: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: «اَللَّهُمَّ.. اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثُمَّ قامَ آخَرُ فَقال: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: «سَبَقَكَ بِها عُكاشَةُ».

* * *

هذه الرِّوايةُ وأَمثالها من بُشْرياتِ الحبيبِ المُصْطَفَى ﷺ لأُمَّتِه. فلقد علَّمه ربُّه أنَّ هناك طوائِفَ من المُسلمين يدخلون الْجَنَّةَ بغيرِ حساب ولا عقاب.

وقُدِّرت هذه الطوائفُ بسبعين أَلْفًا، وفي رواية أخرى: «سَبْعُونَ أَلْفًا.. مَعَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا»، وأيًّا ماكان، فالمُراد عددٌ كثيرٌ كرَّم اللهُ به النَّبِيَّ وَأُمة الإسلام..

وقد جاء وصفٌ لهؤلاء بأنهم على صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، وأنهم مُتَماسِكون: آخذٌ بعضُهم بعضًا، لايدخُلُ أَوَلُهم حتى يدخُلَ آخِرُهم، أي: إنهم يدخلون صفًّا واحِدًا، بعضُهم بجوارِ بعض. مِمَّا يُؤكِّد عِظَمَ سَعَةِ بابِ الْجَنَّةِ.

وقد استحقَّ هؤلاء السَّبْقَ إلَى الْجَنَّةِ والدخولَ بغَيْرِ حِسابٍ لِصِدْقِ عقيدتِهم فِي اللهِ، وكمالِ اعتِقادِهم فِي قُدْرةِ اللهِ وجلالِهِ وَكَمَالِه فقال ﷺ : «هُمُ الَّذِينَ لايَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ» أى إنهم بلغوا القمةَ فِى الإيمان. يمارسون حياتهم ويتخذون الأسبابَ المشروعة، إلَّا إنَّ لهم صِلةً قويَة باللهِ عزّ وجلَّ تُثَبِّتُهُمْ بالقولِ الثابتِ فِى عقيدتِهِمْ فالتوكُّل: حرَكةُ قلبٍ، والأخذُ بالأسبابِ: حركةُ جوارحٍ، ولامُنافاةَ بيْنهما. وقد رَقَى رسولُ اللهِ ﷺ واسترْقَى، وحثَّ على التَّداوِى، وذكر منافعَ بعضِ الأدويةِ والأطعمةِ كالعسلِ والحبَّةِ السوداء.

ولما شوَّق الرسولُ أصحابَه إلَى ما أعدّه الله لهؤلاء السابقين، قام أحدُ الصحابةِ، وهو عُكَّاشَةُ (بضم العين وتشديد الكاف أو تخفيفها) وسأل الرسُولَ ﷺ أنْ يدعوَ اللهَ له فيجعلَه من هؤلاء السابقين.. واستجاب الله تبارك وتعالى دُعاءَ نبيِّه، وبشَّر الرسولُ ﷺ عكاشة بهذه المنزلةِ العظيمةِ..

وأمامَ هذه الاستجابةِ السريعةِ والبُشرى العظيمةِ قام رجلٌ آخرُ وطلب نفْسَ الطلبِ، وقال: يارسول الله، أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ، فداعبه الرسولُ الكريمُ ﷺ وقال له: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ» .

ولعلّ الرجُل الثانىَ لم يكن بصفةِ السابقين ولا بمنزلة عُكاشة فِى الدِّين، فلم يتلقَّ الرسولُ وحيًا بشأنِه..

اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ

أخرج البخارِيُّ في صحيحِه بسنده عن أَبي هُريرَةَ أَنه قال: قُلْتُ: يارَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِكَ، يَوْمَ الْقِيامَةِ؟

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ - يَا أَبا هُرَيْرَةَ - أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هذا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ. أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ: مَنْ قالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ».

* * *

أَبو هُريرَةَ: راوِيَةُ الإِسْلام، منحَه اللهُ مَلَكَةَ حِفظٍ واسعةٍ. وقد سأل رسُولَ اللهِ ﷺ سؤالًا عجبًا، كان محلَّ اهتمام الرسولِ الكريم، ودلَّ على شغفِ أَبي هريرةَ بالعلم، وحِرْصِه على المُتابَعةِ الأمينةِ للمصطفى الكريم..

لقد قال: يارسولَ اللهِ، مَنْ أَسعدُ النَّاسِ بشفاعتِك يوْمَ القِيامةِ؟

أَى: من أَكثرُ الناس انتِفاعًا بشفاعةِ الرسولِ الكريم، لأَن شفاعة الرسول ﷺ مُتعدِّدة، منها ماهو عامٌّ للخلائقِ أجمعين، وهو الشفاعة العُظمى، ومنها ماهو خاصٌّ. وهذا الخاصُّ للمُؤمنين فقط. قد يكون دخولًا للجنةِ بلا حساب، أَو رفْعًا للدرجاتِ، أو إِخْراجا من النَّار بعد قضاءِ العُقوبة المُؤقَّتة..

فالسؤال من أبي هريرةَ: عَمَّن يحْصُل على قدْرٍ أعظمَ، ويستفيدُ فائدة كُبْرى... ولأهمِّيَّةِ السؤالِ، ولمَكانةِ أبي هُريرة، قال عليه الصلاةُ والسَّلام: «لَقَدْ ظَنَنْتُ - يا أبا هُرَيْرَة - أَن لَايَسْأَلَنِى عَنْ هذا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ».

ثم أجاب الرسولُ ﷺ على السؤالِ، مُحدِّدًا صفاتِ هؤلاء السُّعداء، فقال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ: مَنْ قالَ: لا إله إلَّا الله، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» (شَكَّ مِنَ الرَّاوى).

فهؤلاء السعداء هم الذين حقّقوا عُمْقَ الإيمانِ وانشرحتْ صُدورهم بنورِ الإسلام، وأخلصوا العِلمَ والعمَل، وآثروا المُتابعة وحُسنَ الاقتداء..

والمُراد بقوله «مَنْ قالَ»: من نطَق مُعبِّرًا عن عقيدته. والمُراد بقولِه: «لا إله إلا الله»: كلمةُ التوحيد بشِقَّيْها المُتعلِّقَيْن بالألوهيةِ والنُّبُوَّة، أَىْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله». فلا يَكْفِى أحدُهما دون الآخر، فهما مُتلازمان. فالدِّين قائِمٌ عَلى توْحيدِ الله تبارك وتعالَى ونُبُوَّةِ مُحمدٍ ﷺ..

وهذه العقيدةُ لابُدَّ أَنْ تكونَ خالصةً من النِّفاقِ والرِّياءِ على حَدِّ قوله تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾[1].

(١) سورة الزمر الآية ٢.

ومتى سَـلمت العقيدةُ من الشِّرْك وقامت على الإخلاص: فقد تحقّقت المُتابعة، واستكمل الإنسانُ أسبابَ السعادةِ فِى العملِ، وتفضّل الله تبارك وتعالى عليْه بمعالمِ السعادةِ فى الأجر والثوابِ..

إجابَةُ النِّداءِ

أخرج البخـارىُّ فِـى صحيحِهِ، بِسـنده عن جابرِ بن عبـد الله: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

«مَنْ قالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّداءَ: اَللَّهُمَّ: رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفاعَتِى يَوْمَ الْقِيامَةِ».

* * *

الـمُـراد بالنِّداء هنا هو الأذانُ للإعلام بدُخولِ وقت الفريضة. ومحلُّ هذا الدعاءِ عَقِبَ الفراغِ مِن الأذان لقولِه ﷺ كما ورد فِى صحيح مسلم: «إذا سَمِعْتُـمُ الْـمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مايَقُولُ، ثُـمَّ صَلُّوا عَلَىَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى علىَّ صَلاةً: صلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِى الْوَسِيلَةَ».

وسُؤال الوسيلةِ يكون بهذه الكلمات النبويَّةِ:

«اَللَّهُمَّ، رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ: آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ».

والـمُـراد بالدعوةِ التامةِ، دعوةُ التوحيد؛ فهى تامَّة لاشِـرْكَ فيها، وهى تامَّة، أى: باقيةٌ إلَى يوْمِ الدِّين.

والمُـراد بالصلاةِ القائمةِ: قَوْلُ المُؤذِّن: «حَـيَّ عَلَى الصَّلاةِ» لأنها دعوةٌ إلَى إقامةِ الصلاةِ المأمورِ بها في مثلِ قوْلِه تبارك وتعالَى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١).

والوسـيلةُ: ما يُتقَرَّب بِهِ إلَى شـيءٍ آخرَ أعظمَ، وقد فسَّرها الحديث الشريفُ القائلُ: فَإنَّها مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاتَنْبَغِي إلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ.. وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا: هُوَ. فهذه المنزلةُ تُقرِّب المُصطفى ﷺ إلَى ربِّه، وتجعلُه فِي مقام كريم.

والفضيلة: هي مرتبةٌ زائدة تخصُّ سـيدَنا محمدًا دون سائر الخلق، وقد تكون تفسيرًا للوسيلة..

والمراد بقوله: «وابْعَثْه مَقامًا مَحْمودًا»: هو الشـفاعةُ العُظمى لفصلِ الخطاب بيْن الخلائق. وجاء اللفظُ بالتَّنْكير مُراعاة للنَّصِّ القرآنيِّ:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٢).

وجـاء التنكيرُ أيضًا للتَّفْخيـم.. وهناك روايـةٌ بالتعريف، هكذا: «وابْعَثْهُ الْـمقامَ الْمَحْمُودَ». وإنما كان المقامُ محمودًا، لأنَّ الخلائقَ كلَّها تحْمدُ فيه رسولَ الله مُحمّدًا ﷺ لشفاعتِه عند ربِّه.

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٠.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٩.

وإذا حافظ المُسلم على هذا الدُّعاءِ عَقِب الأذانِ وجبتْ له شفاعةُ الحبيبِ المُصْطفى، ودخَل تحت اللِّواءِ المرْفوعِ لسيِّدِنا رسولِ اللهِ، وحظِيَ بمزيدِ الثوابِ والفضلِ من اللهِ العَلِيِّ الأعْلَى..

سُكْنَى الْمَدِينَة

أخرج مسلمٌ فِي صحيحِه، بسنده عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أَحَرِّمُ ما بَيْنَ لابَتَي الْمَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضاها، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُها» وقالَ: «الْمَدِينَةُ: خَيْرٌ لَهُمْ، لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ، لايَدَعُها أَحَدٌ، رَغْبَةً عَنْها: إلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيها مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.. وَلايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وَجَهْدِها إلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

* * *

المدينة هي البلدة الطَّيِّبة التى أقام فيها الرسولُ ﷺ بعد هجرته من مكة، واستقر فيها مع أصحابه المُهاجرين والأنصار، وانتشر منها نورُ اللهِ فى الآفاقِ، وجاء نصرُ اللهِ والفتحُ.. وقد حظِيَت المدينة المُنَوَّرة برفعةٍ وشرفٍ، كما حظِيَت مكةُ المُكرَّمة. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذى بنَى الكعبةَ مع ولدِه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ونشأت حول الكعبةِ مكَّةُ، واستقر الناسُ فيها، وتحوَّلت إلَى حَرَم آمِنٍ، يُجْبَى إلَيه ثمراتُ كلِّ شىء..

وبما أن محمدًا ﷺ هو دعوةُ أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما فى قوله تبارك وتعالى:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١).

فلقد دعا سيُدُنا محمدٌ ﷺ للمدينةِ، كما دعا إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام لمكّةَ، واستجاب الله دعوة نبيِّه محمد ﷺ، فجعل المدينةَ حرمًا آمِنًا، أى: مكانًا معظَّمًا، تُضاعف فيه الحسنةُ، ولا يُقطع عِضاها، أى: شجرُها الذى لايستنبتُه الناس، ولايُطارد صيْدُها..

وبيّن الرسولُ ﷺ، حدودَ المدينةِ، فقال: «مابَيْنَ لابَتَيْها.». واللَّابَةُ هى الأرضُ ذاتُ الحجارةِ السوداء، وتُسمى حَرَّة، وللمدينة حرَّتان: شرقية وغربية..

ولـمَّا كان المسلمون فى أول عهدهم بالهجرة يُعانون من ترْكِ الأوطان والأهل والمالِ، والانتقال إلى طقْسٍ لم يألفوه سبّب لهم بعض الأمراض - فقد رغّبهم الرسولُ ﷺ فى الإقامة بالمدينة، حِرصًا على العقيدةِ وتدعيمًا لقوةِ المسلمين، فقالَ: «لايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وجَهْدِها: إلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» واللأواء: الشِّدَّة والْجوع.. والجَهد - بالفتح - : الـمَشَـقَّة.. فهؤلاء الذين هاجروا فـى الله ولله، وليس لدُنيا يُصيبونها أو نساء ينكحونها؛ فإنّ الرسول الكريم ﷺ يكون لهم شهيدا على أفعالِهم الصالِحةِ، شفيعًا لهم عند الـمَلِكِ الحَقِّ الـمُبين.

وهذا الحُكم مرهونٌ بهذه العِلّة، فحيْث تكون الإقامةُ بالمدينةِ من أجل الدِّين ونُصرة المسلمين، فللمُقيم هذه الشفاعةُ من الرسولِ ﷺ أما الذين

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩.

يذهبــون لغرضِ الدُّنيا ومتاعِ الحياةِ وجمع الأموالِ، فلا نصيبَ لهم من هذه الشفاعةِ إلا بقدر نيّتِهم وَحُسن علاقتِهم بإخوانهم والتِزامِهم بِشَرْعِ اللهِ ووفائِهم لرسولِ اللهِ ﷺ.

مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَة

أخرج البخاريُّ فِي صحيحه، بسنده عن حميد، قال:
سَمِعْتُ أَنَسًا ﷺ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ شُفِّعْتُ، فَقُلْتُ: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ).
فَيَدْخُلُونَ. ثُمَّ أَقُولُ: «أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ».
قالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

* * *

هذا حِوارٌ قُدْسِيٌّ بين اللهِ عزّ وجلّ ومُصطفاه سيِّدِنا محمدٍ ﷺ حول الشفاعةِ، التي كرّم الله تبارك وتعالى بها هذا النبيَّ العظيم..
ففي يوم القيامة يُشَفَّعُ الرسولُ ﷺ أي: تُقبل شفاعتُه. فالرسولُ ﷺ شافعٌ مُشفَّعٌ، أي: طالبٌ للشفاعةِ، ومقبولُ الشفاعةِ.
فيُنادي الرسولُ ﷺ ربَّه تبارك وتعالى قائلا: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ». فيُجابُ على الفور، ويدخُل هؤلاء الْجَنَّةَ.
والخَردلةُ: تَعبيرٌ عن الشيء الصغير. والمُراد: الإيمانُ القلبيُّ، فإن الإيمان تصديقٌ وعملٌ ونُطقٌ..
والتصديق هو الرُّكْن الأساسي.. ويزيد هذا التصديقُ وينقُص تبعًا

للأعمـال.. ويأتِى النُّطق باللِّسـانِ لِتَجْرِىَ على المَرْءِ أحكامُ الإسـلامِ فى المجتمع..

وركْنـا العملِ والنطقِ قد يتحقّقـان فى الواقع، وقد يعْتريهما نُقصان أو خَفـاء.. أمّا رُكن التصديقِ القلبىِّ، فإمّا أنْ يوجد أو يُعدم. وهو فيْصل التفرقةِ بين الإيمانِ والكُفر فِى الآخِرةِ..

فـإنّ قوْمًا قد يأتـونَ يومَ القيامةِ ولاعمـلَ لهم، فيدخُلـون النَّارَ لقضاءِ العقوبةِ المُؤقّتة عليهمْ دهرًا من الزمنِ، فيأتى رسـولُ الله ﷺ ليشفعَ لهم فـى انتهاء العقوبةِ وإدخالهم الجنة، لِما اسـتقرَّ فى قلوبهم من الإيمانِ، كمِثقالِ حبةٍ من خردلٍ أو أدنى من ذلك.

وقد ضمَّ الرسـول ﷺ أصابعَه وحلّق بها حَلَقاتٍ صغيرة، يُوَضِّح بها مرادَه ويُقَرِّب بها المعنى..

ويظل الرسولُ الكريمُ ﷺ يَشْفَعُ عند ربِّه ويُسْتجاب لشفاعتِه، حتى لايبقى فى النارِ مَن كان فِى قلبِه أدْنى شىءٍ من الإيمان.. وحينئذٍ تُغلقُ أبوابُ النَّار على الكافرين..

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١).

فهذا الحديث الشريف يعرض لمناجاة علوية بين سيدنا محمد وربه، يظل فيها الرسول يناجى ربه مرات حتى يخرج من النار أدنى المؤمنين عملاً فضلا من الله ونعمة وإظهار لكرامة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٤.

عُتَقاءُ الله تبارَك وتعالَى

أخرج البخاريُّ فِى صحيحه، بسنده عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضِىَ اللهُ عنهما، عن النبىِّ ﷺ، قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

* * *

هذا نبأٌ من الغيْبِ يسُوقه الرسولُ ﷺ تذكيرًا للمُؤمنين، حتى يُسارعوا إلَى العملِ الصالحِ قبل أنْ تلفَحَهمُ النَّارُ بلهيبِها، وحتى يُدرِكوا فضلَ نبيِّهم، الذى أنقذَهم من النَّارِ بالدعوةِ والعمل..

فإنَّه ﷺ قد بلَغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصَح الأُمَّةَ، وكشَفَ الغُمَّةَ، وجاهد فِى اللهِ حقَّ جِهادِه، حتى أتاه اليقينُ.. وإذا كان يومُ القيامةِ، فإنه ﷺ يتعقَّب أُمَّتَهُ فِى كلِّ مكانٍ، ليأخُذَ بأيْديها إلَى الْجَنَّةِ؛ فقد يُدْرِكُ بعْضَها فِى الطريقِ فيُنقِذُهم إنْقاذًا تامًّا مِنَ النَّارِ، وقد يُدرِك بعضًا آخرَ بعد أنْ يُلْقَى فِى جهنَّمَ، فيمسُّهم منها سَفْعٌ، أى سوادٌ فيه زُرقة أو صُفرة.. يُقال: سفعتْه النَّارُ إذا لفحَتْه، فغيَّرت لوْنَ بَشَرَتِه..

وفِى صحيحِ البُخارىِّ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النبىِّ ﷺ قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ، بَعْدَما مَسَّهُمْ مِنْها سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُسَمِّيهِم أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

وهـؤلاء الجَهَنميُّون، أى: أَصْحابُ جهنَّم، الذيـن قضَوْا فيها حِقَبًا أكْثرَ منْ غيرِهم يُسمَّوْن أيضًا عُتقاءَ اللهِ. فَفِى رواية لجابر:

«فيُكْتَـبُ فِى رِقابِهِمْ: عُتَقاءُ اللهِ، فَيُسـمَّوْن فِيها – أىْ فِى الْجَنَّةِ – الْجَهَنَّمِيِّينَ.

وأخرج النسائىُّ عن أنس:

«فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هؤُلاءِ الْجَهَنَّـمِيُّونَ، فَيَقُولُ اللهُ: هؤُلاءِ عُتَقاءُ اللهِ.

وهـذا الوصفُ بالجهنميِّين يُسـبِّب لهم إزعاجًا وقلقًـا. ولهذا جاء فـى رواية لحُذَيْفةَ عند البيْهقىِّ: «أَنَّهُمُ اسْـتَعْفَوْا اللهَ مِنْ ذَلِكَ الاسْـمِ، فَأَعْفاهُمْ».

ولعلَّ هذا الوصفَ إنما لَحِقَهُمْ فترةً من الزمن ليسـتشعِروا نعمةَ اللهِ عليهم. فإنَّ العدلَ هو عِقابُهم، وإنْ الفضلَ هو العفوُ عنهم، وإنَّ التكريمَ هو جعلُ العفو مُرتبطًا بشفاعةِ الحبيبِ الـمُصْطَفى سيِّدِنا محمدٍ ﷺ..

ولنعلمْ أنَّ الْجَنَّةَ: دارُ السَّلام، لا لغْوٌ فيها ولا تأْثيمٌ.

وكلُّ من دخلِ الجنَّةَ – سـواءٌ من السابقين أو الآخِرين – يحْظَى بِما لاعيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمِعتْ، ولا خطر على قلْبِ بشَرٍ..

إغْلاقُ الأَبْوابِ

أخرج مسلمٌ في صحيحه، بسنده عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُها، فَإِنَّهُم لا يَمُوتُون فِيها ولا يَحْيَوْنَ، ولَكِنْ ناسٌ أَصابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهم - أَوْ قالَ بِخَطاياهُمْ - فَأَماتَهُمْ إِماتَةً؛ حَتَّى إِذا كانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبائِرَ ضَبائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَباتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

* * *

هذا الحديث الشريف يُؤكِّد قاعدةً شرعيةً من أُصولِ الدِّين، هي أَنَّ الكافرَ مُخلَّدٌ في النارِ أبدَ الآبادِ ودهْرَ الداهرين، لا تنالُهُ شفاعةٌ، ولايموتُ فيها فيستريحَ، ولايحْيا حياةً طيِّبةً فَيَخْرجُ منها..

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (١).

أَمَّا المُؤمنُ الذى ارْتكبَ ذنبًا أو خطيئةً، ومات دون توْبةٍ، فأَمْرُه مُفوَّضٌ إِلَى اللهِ: إِنْ شاء عذَّب، وإِنْ شاء عفا، لقولهِ جلَّ شأنه:

(١) سورة الزخرف الآيات ٧٤ - ٧٧.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ (١).

والحديث الشريف يُصوِّر بعضًا مِنْ هؤلاء، إنهمْ مؤمنون يشهدون لله بالوحدانيّة ولمحمدٍ ﷺ بالرِّسالة؛ لكنهم عملوا السَّيِّئاتِ فأصابتْهم النارُ جزاءَ أعمالهم. فقضتْ على معالم حياتهم الإنسانيَّة، وأصبحوا كالفحْم سودًا؛ فيأذن الله تبارك وتعالى بالشفاعة فيهم، ثُمَّ ينقلُهم ضبائرَ ضبائرَ، أى: جماعاتٍ جماعاتٍ، ثمَّ يُميتُهم إماتةً، أى: يمنحُهم مرحلةَ انتقالٍ بيْن ماكانوا فيه من الآلام وبيْن مايصيرون إلَيْه من الآمالِ، حتى ينسَوْا ما مضى ويستعدُّوا لما هو آتٍ من النعيم المُقيم.

ويبْشُرهم الله تعالى على أنهارِ الْجَنَّةِ يسْتَنْشقونَ عبيرَها، ويتوافدُ عليْهم أَهْلُ الجَنَّة يُبشِّرونهمْ بالنُّزُلِ الجديدِ والمقام الحميد..

«فَيَنْبُتُون نَباتَ الْحِبَّةِ فِى حَمِيلِ السَّيْلِ» أى: يستعيدون نشاطَهم وحيويَّتَهم شيئًا فشيئًا، كما تَخْرُج البذرةُ حين يلْقاها ماءُ المطرِ سريعةً وضعيفةً، ثُمَّ تقْوَى وتشتدُّ ..

هؤلاء يكونون آخِرَ أَهْلِ النارِ خُروجًا، وآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخولًا..

وحينئذ تُغلق الأبوابُ، ويُقال:

[يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ بلا مَوْتٍ.. وَيا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بلا مَوْتٍ].

وهؤلاء الذين أُغلقت عقِبَهم أبوابُ جَهنَّمَ وأبوابُ الجنةِ، قد خرجوا

(١) سورة النساء الآية ١١٦.

من النَّارِ بشفاعةِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وهم المقْصودون برحمةِ الرحمنِ فى الحديثِ السابق:

«شَـفَعَتِ الْـمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَـفَعَ الـمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

وبذلك يكون لسيِّدِنا محمدٍ ﷺ فَضْلُ السَّبْقِ بالشَّفَاعةِ العُظْمى، وفضْلُ الخِتامِ بالشفاعةِ فِى عُتَقاءِ اللهِ..

الفصل الخامس

الْـمَحْرُومُونَ مِنَ الشَّفاعَةِ

* لا شَفاعَةَ فى كافر.
* مَوْقِفُ أَبى طالِبٍ.
* لا شَفاعَةَ فى الْـمُبَدِّلِينَ.
* لا شَفاعَةَ لِلعَّانِ.
* لا شَفاعَةَ فِى الْغُلُولِ.

لاشفاعة فى كافر

أخرج البخارىُ فى صحيحه، بسنده عن أبى هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ حين أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١).

قال: «يا مَعْشَرَ قُرَيْش.. اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يابَنِى عَبْدِ مَنافٍ، لا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا..

ياعَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لا أُغْنِى عَنْكَ مِنَ اللهِ..

ياصَفِيَّةُ – عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ – لا أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا.

وَيا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينى ما شِئْتِ مِنْ مالِى.. لا أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

***

اختار الله تبارك وتعالَى رسولَهُ مُحمدًا ﷺ ليتحمَّلَ أمانةَ البلاغ إلَى الخَلْقِ كافَّة. فرسالةُ الإسلام تتخطَّى حُجُبَ الزمانِ والمَكانِ.. لِتصلَ إلَى الإنس والجنّ، حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومنْ عليها. قال تبارَك وتعالَى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

وعندما كُلِّف الرسولُ ﷺ بالجهْرِ بالدعوةِ، بدأ بأهْلِه وعشيرته، استجابةً لقوله تبارَك وتعالَى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١).

فإنْ هُمْ آمنوا فقد اهتدَوْا وكانوا حُماةَ الدعوةِ، وإنْ هُمْ أبَوْا، فقد أعذر إليْهِمْ..

وجاءت رواياتٌ في الصحيحيْن تُفيد أنَّه ﷺ صعد الصَّفا، وأخذ يُنادى على بُطونِ قُرَيش، وعمّ وخصّ، فذكرَ عمَّه وعمَّتَه، وختم بابنتِه فاطمة الزهراءِ رضى الله عنها ودعاهم إلَى الإسلام وإنْقاذِ أنفُسهم من النيران، وأعْلن أنه لايُغْنى عنهم من اللهِ شيئًا، ولايستطيع أن ينفعَهم في الآخرةِ بشيء مادامُوا كافرين، فإنّ رابطةَ الإيمانِ هى أساسُ الشفاعة.. قال تبارك وتعالَى في حقِّ الكافرين:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢).

وقال جلَّ شأنُه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣).

ونبّه الرسولُ ﷺ أعزَّ أبنائه إليه، وهى السيدة فاطمة رضى الله عنها، بأنه يستطيع أنْ يمنحَها من مالِه ماشاءت. لكن هذا المالَ لاقيمةَ له في الآخرةِ، ولا جدْوَى منه في دفعِ عذابِ اللهِ الواقعِ على الكافرين..

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٢) سورة المدثر الآية ٤٨.

(٣) سورة غافر الآية ١٨.

وفى بعض الرِّواياتِ عند مسلم:

«غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّها بِبلالِها»

أى: إنّ للرّحِم حقًا ولذوى القُرْبى صِلَةً.. إلَّا إنَّ هذا الحقَّ وتلك الصِّلةَ فِى حدودِ مايملِكُ الإنسـانُ من أموالٍ أو مشـاعِرَ.. أمَّا الهدايةُ والتوفيقُ للإيمـانِ، فلا أحَدَ يملك ذلك لأحدٍ، وكلّ ما فِى الأمرِ هو البلاغُ والنُّصحُ والبيانُ، قال تبارك وتعالَى:

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ (١).

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

مَوْقِفُ أَبِى طالِب

أخرج مسلمٌ فِى صحيحِه، بِسنده عن العباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب - رضي الله عنه - أنه قال: (يارَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّه كانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟)

قالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِى ضَحْضاحٍ مِنْ نارٍ.. وَلَوْلا أَنا، لَكانَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ..

* * *

أَبو طالب بنُ عبدِ المُطّلب هو عمُّ رسولِ اللهِ ﷺ . وقف بجوارِ ابنِ أَخيه يُدافع عنه ويَردّ أَذَى قُريش، كما تكفَّلَ به مُنذ صِغَره، لأنه ﷺ نشأ يتيمًا..

وكان أبو طالب يعلَمُ صِدقَ رسولِ اللهِ ﷺ.. لكن حِكْمةَ اللهِ اقتضتْ أَنْ يظلَّ أَبو طالبٍ عَلَى شِرْكِه، ليحْظَى بالوجاهةِ عند قوْمِه، وليكونَ حلْقةَ وصْلٍ بين المُسلمين والمُشركين..

وكان رسولُ الله ﷺ يقول:

«واللهِ مانالَتْ مِنِّى قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ، حَتَّى ماتَ أَبُو طالِب».

ولقد حاول الرسول ﷺ أَنْ يُسْلِمَ أبو طالب، فجعل يقول له وهو يُعالِج سكراتِ الموْتِ:

«أَىْ عَـمِّ، قُلْهـا (أى كلمـةَ التَّوْحِيـدِ) أَسْـتَحِلَّ لَكَ بِها الشَّـفاعَةَ يَوْمَ القِيامَةِ».

وكان يجلسُ حوْلَه أشـرافُ قريش، فقال أَبو طالب: (يا ابْنَ أَخِى، واللهِ لَـوْلا مَخافَةُ السُّـبَّةِ عَلَيْكَ، وَعَلَى بَنِى أَبيكَ مِـنْ بَعْدِى، وَأَنْ تَظُنَّ قُرَيْشٌ أَنِّى إِنَّما قُلْتُها جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ، لَقُلْتُها..)

وظلّ الرسـولُ ﷺ يسـتغفِرُ لعمِّه أبى طالبٍ، حتى نزل قوْلُه تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١).

فأبو طالب لن يخرُجَ من النَّار، ولكن تلحقُه شـفاعةُ رسولِ الله ﷺ، فيُخَفَّف عنه من عذابِها بأن يوضـعَ فى ضَحْضاحٍ من النَّار، والضَّحْضاحُ ماءٌ على وجهِ الأرضِ يبلغُ الكعْبين، اسْتُعيرَ فِى النَّار.

ولولا هذه الشـفاعةُ لكان أَبو طالب فى الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّار، أَى: فِى قعْرِ جهنَّمَ وأَقصى أَسفلِها، وهو أَشدُّ دركاتِها.

والدَّرْك والـدَّرَك بفتحِ الرَّاء وإِسْـكانها لُغَتان فصيحتـان وقِراءتان مشهورتان، فطبقاتُ جهنَّمَ دركاتٌ، أَمَا طبقاتُ الجنةِ فدرجاتٌ..

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٣.

لاشَفاعَةَ فى الْمُبَدِّلِينَ

أخرج مسلمٌ فى صحيحِه بسنده عنْ أَبى حازم، قال: سمعتُ سهلاً يقول: سَمِعْتُ النبىَّ ﷺ يَقُول: «أَنَا فَرَطُكُم عَلَى الْحَوْضِ. مَنْ وَرَدَ شَـرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا.. وَلَيَرِدَنَّ عَلَىَّ أَقْوامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنى، ثُمَّ يُحالُ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّى» . فَيُقالُ: [إِنَّكَ لا تَدْرِىْ ماعَمِلُوا بَعْدَكَ] ، فَأَقُولُ: «سُحقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِى» .

***

أَحاديثُ الحوْضِ كثيرةٌ مرويَـة عن جمعٍ من الصَّحابةِ، حَكم عليها العلماءُ بالتَّواتُر. والحوْض مكان مُتسع جدًا يحوى شرابًا أشدَّ بياضًا من اللَّبن، وأحْلى من العسَلِ، وأَطْيبَ من المِسْك، تتدفَّق فيه مياهٌ من أَنْهارِ الْجَنَّةِ، وطولُ الحوْضِ وعرْضُه سواء، وهو مسيرةُ شهرٍ، وكيزانُه أَكْثَر من نجوم السـماء. والرسـولُ ﷺ فرَطُنا عَلى الحوْضِ - أىْ : سابِقُنا - يُعدُّه للمؤمنين، ويقف عليه يُنادى أُمَتَه لتشـربَ منه فِى ساعةِ العُسرةِ والشِّدَّةِ والمشقَّةِ. مَنْ شربَ منه لايظْمأ أَبدًا..

ويعرف الرسـولُ ﷺ أُمَتَه يومَ الْقيامةِ بِأَنَّهـم الغُرُّ الـمُحَجَّلُون مِنْ آثارِ الوضُـوء. والغُرَّة بياضٌ فِى جبْهةِ الفَـرسِ، والتَّحْجيلُ بياضٌ فِى

قوائمه. فأعضاءُ الوُضوءِ تأْتِي يوْمَ الْقِيامةِ ولها نورٌ عظيمٌ وبهاءٌ كبيرٌ..

وفي أثناء ذلك يَردُ على الحوض أقوامٌ يعرفُهم رسول الله ﷺ بأسمائِهم أو بسيماهُم، ثمَّ يُحالُ بيْنَهُم وبينَ الشُّرْبِ من الحوْض..

وهذه الحيْلولَةُ عبّر عنها الرسولُ ﷺ تعبيراتٍ شتَّى منها:

«سَيُؤْخَذُ أُنـاسٌ دُونِي.. أَوْ: فَيُـذَبُّ عَنِّي أَحَدُكُمْ كَما يُـذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ»، أَوْ: «لأُنازَعَنَّ أقْوامًا، ثُمَّ لأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ».

وهذه التعْبيراتُ وغيرها تدُلُّ على معْرفةِ الرسولِ ﷺ بهؤلاء، وعَلَى حِرْص الرسولِ ﷺ عليْهِمْ قبل أنْ يعرف حقيقة أمرهم. وتدلُّ أيضًا علَى أنَّ هُنـاكَ ملائِكَـةً يُنَظِّمون عمليَةَ الوصولِ إلَى الْحوْض، فيسْـمحون لمن يستحقُّ، ويأخُذون بالشدة كلَّ المارقين عن الدِّين، الخارجين على المنْهَج الإلهي، الناقِضين للعهد.

وعندمـا يعرف الرسـولُ ﷺ ما أَحْـدث هؤلاء الـمُبَدِّلـون، يرفُضُ الشـفاعةَ لهم، ويدعُو عليهم بالهلاك.. والصحيحُ في تفسـير الحديث أنَّ هؤلاء الـمُبَدِّلين مُرْتَدُّون، لأنَّ الـمُرْتَدَّ والكافِرَ لا تُقْبَلُ فيهما شـفاعةٌ لقوله تبارك وتعالَى:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (١).

أمَّـا عُصاةُ الأُمَّةِ، فهُمْ محلٌّ للشـفاعةِ لقوْله ﷺ في الصحيح: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْـتجابَةٌ، فَتَعَجَّل كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَـه، وإنِّي اخْتَبأْتُ دَعْوتي شَـفاعةً لأُمَّتِـي يَوْمَ الْقِيامةِ؛ فَهِـيَ نائِلَةٌ - إنْ شـاءَ اللهُ - مَنْ ماتَ مِنْ

(١) سورة المدثر الآية ٤٨.

أُمَّتِي لا يُشْـرِكُ باللهِ شَيْئًا.» وهؤلاء العُصاةُ قد يُمْنعون عن الحوْضِ منْعا مؤَقتا، جزاءَ انْحِرافِهم عنْ الاسـتقامةِ، ثم يعودون لمسـيرةِ الـمُؤمنين الصَادِقين..

لاشفاعة للعَان

أخرج مسلمٌ فِي صحيحه، بسنده عن أبى الدَّرْداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لايَكُونُ اللعَّانُونَ شُفعاءَ، ولاشُهَداءِ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

***

المسلمُ طيِّبُ الكلمةِ، طيِّب السُّلوكِ، عامرُ القلبِ بذكرِ اللهِ، لا يعرف حِقدًا ولاحسدًا ولاضغينةً؛ لأنه مُنْشرحُ الصدرِ بنورِ اللهِ، قال جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (١).

واللَّعْن هو الطَّردُ من رحمةِ اللهِ، ولا يجوز شرْعًا لعْنُ شخصٍ بعيْنِه، حتى ولو كان كافرًا لأنه رُبَما يُسلِمُ ويحْسُن إسْلامُه. بل لقد ورد النهْيُ عن لعنِ الدوابِّ والأموالِ. ففى صحيح مسلم عن عِمران بن حصين ﷺ، قال بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها. فإنها ملعونة».

قال عِمران: فكأنِّى أراها الآنَ تمشى فِى الناس ما يعرض لها أحد».

(١) سورة الزمر الآية ٢٢.

واللَّعنُ إنما يكون على الأوْصافِ كالكفرِ والظلمِ والفسقِ والنِّفاقِ والفواحش.

قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[2].

وقال جلَّ شأنُهُ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾[3].

والإنسانُ اللَّعَّانُ مُرتكِبٌ لإثمٍ كبير وخطيئةٍ عظيمةٍ، ولهذا فهو محرومٌ من رحمةِ الله تبارك وتعالَى، لكثرةِ تقوُّلِه بكلمةِ اللَّعن؛ فإنه كلَّما لعن شيئًا لايستحقُّ اللَّعْنَ رجعت اللعنةُ عليْه.

وفي حديث رواه أبو داود عن أبي الدرداء قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الْعَبْدَ إذا لَعَن شَيْئًا، صَعِدَتِ اللَّعْنةُ إلَى السَّماءِ؛ فَتُغْلَقُ أبْوابُ السَّماءِ دُونَها.. ثُمَّ تَهْبِطُ إلَى الأرْضِ، فَتُغْلَقُ أبْوابُها دُونَها.. ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمالًا، فإذا لَمْ تَجِدْ مَساغًا، رَجَعَتْ إلَى الَّذِي لُعِنَ.. فَإنْ كانَ أهْلًا لِذلِكَ، وَإلَّا رَجَعَتْ إلَى قائِلِها».

ومِثل هؤلاء اللَّعَّانين المُكْثِرين من اللَّعن والطَّعْن والفُحْش يأتونَ يومَ القيامةِ ولا كرامةَ لهم، فلا يكونون شُفعاءَ ولا شُهداءَ، أيْ: سَقَطَتْ عدالتُهمْ، وتُطارِدُهم الذِّلَّةُ حيْثُما كانوا: ويُلاحِقُهم الهوانُ في كلِّ موقف..

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٤.

(٢) سورة هود الآية ١٨.

(٣) سورة المائدة الآية ١٣.

لا شفاعة فى الغُلُول

أخرج البخارىُّ فى صحيحه، بسنده عنْ أبى هُرَيرةَ ﷺ، قال: قامَ فينا النَّبىُّ ﷺ فذكرَ الغُلولَ، فعظَّمَهُ وعظَّمَ أمْرَهُ، قالَ:
«لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يا رَسُولَ اللهِ أغِثْنِى، فَأقُولُ: «لا أمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قدْ أبْلَغْتُكَ» وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعيرٌلَهُ رُغاءٌ، يَقُولُ» يا رَسُولَ اللهِ، أغِثْنِى، فَأقُولُ: «لا أمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أبْلَغْتُكَ».

وَعَلَى رَقَبَتِهِ صامِتٌ فَيَقُولُ: «يارَسُولَ اللهِ، أغِثْنِى».
فَأقُولُ: «لا أمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أبْلَغْتُكَ»
أوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: «يارَسُولَ اللهِ، أغِثْنِى»
فَأقُولُ: « لا أمْلِكُ لَكَ شَيْئًا.. قَدْ أبْلَغْتُكَ».

* * *

الغُلولُ هو الخِيانةُ فِى غنائمِ الحرْبِ، بأنْ يأْخُذَ المرء شيئا لنفسه مما ترك العدوُّ قبلَ تسليمِ الغنائمِ لِوَلِىِّ الأمرِ وتقسيمِها فِى وُجوهِها الشرعِيةِ.
وهذه الخيانةُ من أكْبرِ الكبائرِ، وهى تُؤكِّد حُرمةَ المالِ العامِّ، وتدعو المسلمَ إلَى ضرورةِ الحِفاظِ عليْهِ وعدمِ المَساسِ به..
ولهذا قام الرسولُ ﷺ خطيبًا، وذكَّر الناسَ بخُطورةِ الجُرأةِ على المالِ

العامِّ، وعَظَّم الرَّسـولُ ﷺ الغُلولَ، وعظَّم أمرَه، أى: عدّه من الكبائِرِ، وتوعّد عليه وعيدًا شديدًا.

ونبّه الرسـولُ ﷺ إلى أنَّ كلَّ من أخذَ شـيئًا من هـذا المالِ بغيْرِ حقّ سـيفضحهُ اللهُ على رُءوسِ الأوّلينَ والآخرين يوْم القيامة، سواءً كان هذا الشـيءُ صغيرًا أم كبيرًا، وسـواءً كان حيوانا أو غيره من أصْنافِ المالِ، فمـن خَانَ فِى فرسٍ أو بعيرٍ أوْ صامـتٍ، أى ذهبٍ وفضةٍ، أوْ رِقاعٍ، أى ثيابٍ، فإنه سـيجعلُها علـى رقبته، ولها أصـواتٌ فاضحةٌ كحمْحمة الفـرس أى: صوْته، ورُغاءِ البعيرِ، أى: صوْته، وخفْقانِ الثّيابِ، أى: حرَكَتها بسببِ الرِّياحِ ولَمعانِها..

كلُّ هـؤلاء الذيـنَ خانوا أمانـةَ الغنائِمِ يُقابلُونَ رَسـولَ الله ﷺ يوْمَ القيامةِ، ويستغيثون به، رَجاء شفاعتِه عند ربِّه تباركَ وتعالَى، فيعتذرُ الرسـولُ ﷺ عن القيامِ بدوْرِ الشفاعةِ لهؤلاء الخائنين، الذين ارتكبوا جرائمَ الخيانةِ فِى المالِ العامِّ..

وقد أعْذَرَ الرسـول ﷺ إليهـمْ فِى الدُّنيا، ونهاهُـمْ عن هذا المصير السَّيِّىء وقال:

«لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم» بضمِّ الألف وبالفاء أوْ:

«لا أَلْقَيَنَّ أَحَدَكُم» بفتح الألف وبالقاف،

بمعنـى لا أجدُ واحدا منكم يفعلُ هذه الْجريمـةَ النَّكراء أو لا ألتقى بأحدٍ مِنْكُمْ يَفْعلُ هذهِ الْجريمَةَ. والنفى مراد به النهى.

وهذا الحديث يلْتقى مع الآيةِ الكريمةِ فِى سـورةِ آلِ عِمْرانَ ويُفسِّرها،

وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآية ١٦١.

الفصل السادس

اَلشَّفاعَةُ فِى الدُّنْيا

* اَلشَّفاعَةُ الْحَسَنَةُ والشفاعةُ السَّيئَةُ.
* لا شَّفاعَةَ فِى الْحُدُودِ.
* اَلشَّفاعَةُ فِى الزَّواجِ.
* اَلشَّفاعَةُ فِى الدُّيُونِ.

اَلشَّفاعَةُ الْحَسَنَةُ والشفاعةُ السَّيئَةُ

أخرج البُخارىُّ فِى صحيحِه بسنده عن أبى موسى ﷺ، قال: كان النَّبىُّ ﷺ إذا جاءَهُ رجُلٌ يَسأل، أوْ طالِبُ حاجةٍ، أقْبَل علينا بوجهِه، فقال: «اِشْفَعُوا: تُؤْجَرُوا، وَيقْضِى اللهُ عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ ما شاءَ».

* * *

الشفاعةُ هى طلبُ الخيْرِ من الغيْرِ إلَى الغيْرِ، وتكون شفاعةُ حسنةً إذا كان المقْصودُ منْها التوصُّلَ إلَى الحقِّ، والتيسيرَ فِى الحصولِ عليه. وتكون شفاعةً سيِّئة إذا ترتَّب عليْها ظُلْمٌ للآخرين، واعتداءٌ على حُقوقِهمْ، والاستِئْثارُ بما لاَ يستحِقُّه المشفوعُ له..

وفى هذين النَّوْعَيْن جاء قولُه تبارك وتعالَى:

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾(١)

وكان الرسولُ ﷺ يُحثُّ النَّاسَ علَى المُسارعةِ إلَى الخيراتِ والمُشاركةِ فيهـا، فإذا أتاه سائلٌ أوْ صاحبُ حاجةٍ، عرَض الأمـرَ على أصْحابِه، وطالبَهُـمْ بتبنِّـى وِجْهَةِ نظـرِ السـائلِ، والدِّفاع عنهـا، وبيان وجه استحقاقِه، ما دام صاحبَ حقٍّ، حتى يُشاركوا فِى الثوابِ..

(١) سورة النساء الآية ٨٥.

وشأنُ مجتمع المسلمين: أنه مجتمعٌ مُتكافِلٌ يأْخُذُ القويُ فيه بيدِ الضعيفِ. وليس كلُّ واحدٍ يستطيع أنْ يصلَ إلَى ولِيِّ الأمْرِ، يرْفع إلَيْهِ ظُلامَتَه.. وهنا يجب عَلَى الوُجَهاء وكُبَراء القوم أنْ يَشْفَعوا لمثلِ هؤلاء المُستضعفين..

وهذه الشفاعةُ فِي الخيْرِ لا تعْنى بالضرورةِ أنْ يلتزمَ بها المشفوعُ إلَيْه، فتلك مسألةٌ أُخْرى تخضعُ لاعتباراتٍ كثيرةٍ، كمَدَى حاجةِ السائل، ومدَى اسْتِحْقاقِهِ، ومدَى إمكانِيَّةِ تحقيقِ رغبتِه، ومدَى ما يملِكُ المشفوعُ إلَيْه من التنفيذ .. وهكذا ..

ولهذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « وَيقْضِى اللهُ عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ ما شاءَ». فالمُهِمُّ هو المُطالبةُ بالحقِّ، ومُساندةُ صاحِبِ الحاجةِ، والوُقوفُ إلَى جوارِه، ثم بعد ذلك ندَعُ العواقِبَ لله تبارك وتعالى: أحْكم الحاكِمين.

وَعَلَى وُلاةِ الأمور النظرُ بعيْنِ الاعتبارِ إلَى شفاعةِ الخَيْرِ، واحترامُ القائمين عليْها، وتشجيعُ المُتطوِّعين من المؤمنين لقضاء مصالح الناس..

لكنْ هناك صِنفٌ من الناس يتطوّع - مذمومًا مدحورًا - بإفسادِ العلاقاتِ الاجتماعيَّةِ، أوْ تقطيعِ الأرْحام، أوْ تعطيلِ مصالحِ العبادِ، أوْ التستُّرِ علَى جرائمَ تقعُ تحتُ طائلةِ القانون..

هؤلاء هم أصحابُ الشَّفاعةِ السَّيِّئة، الذين يتحمّلون أوزارًا مُضاعفةً، لأنهم فاسدون مُفْسدون..

وأصحابُ الشفاعةِ السيئةِ يَلحقُهم وصْفُ الفسقِ، كما فى قوله تبارك وتعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ

قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[1].

وهؤلاء هم النَمّامون الباغون للبُرَآء العنَتَ والعيْبَ.. وقد توعّدهم الله تبارك وتعالى بخـزى الدُّنيا وعذاب الآخرَة، ذلكَ العذابُ الذى يبدأ فى القبْر، ويسـتمرُّ أحْقابا مُتطاولةً. ففى الصحيحين أنَّ رسـولَ الله ﷺ مرَّ بقبريْـن فقال: «إنَّهما يُعَذَّبانِ وَما يُعَذَّبانِ فِى كَبِـيرٍ، بَلَى إنَّهُ كَبيرٌ أمَّا أحَدُهُما فكانَ يَمْشِى بالنَّميمَةِ، وأمَّا الآخَرُ فكانَ لا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِه»..

وفى الصحيحين أيضًا قال عليه الصلاةُ والسلامُ «لايَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ».

مثل هـؤلاء الْمَقْبُوحِينَ موجـودون فِى كلِّ بيئةٍ ووسَـطَ كلِّ جماعة، والواجبُ هو مُقاطعتُهم وتبْكيتُهم وتحذيرُهم من مَغَبّةِ أقوالِهم القبيحةِ وأفعالِهمُ الدّنيئة.

ويُروَى أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيز ﷺ دخل عليْهِ رجلٌ، فذكر له شيئًا، فقال له عمرُ، «إنْ شِئْتَ نَظَرْنا فِى أمرِكَ، فإنْ كُنْتَ كاذِبًا فَأنْتَ مِنْ أهْلِ هذِهِ الآيةِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[2].

وَإنْ كُنْتَ صادِقًا، فأنْتَ مِنْ أهلِ هذِهِ الآيةِ..

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات الآية ٦.

(٢) سورة الحجرات الآية ٦.

(٣) سورة القلم الآية ١١.

وَإنْ شِئْتَ عَفَوْنا عنكَ».
فقال الرجلُ: العفوَ يا أَميرَ المؤمنين.. لا أَعودُ إليه أَبدا..

لا شَفاعَةَ فِى الْحُدُود

أخرج البُخارىُّ فِى صحيحِه بسندِه عن عائشةَ رضِى اللهُ عنها: أَنَ قُرَيْشًا أَهمّتهم المرأةُ المخْزومِيَة التى سرقتْ، فقالوا: مَنْ يُكلِّمُ فيها رسولَ اللهِ ﷺ، ومِنْ يَجْتَرئُ عَلَيْه إلَّا أُسامَةُ: حب رسول الله ﷺ. فكلم رسول الله ﷺ فقال: «أَتَشْفَعُ فِى حَدٍّ مِنْ حدُودِ الله؟»

ثُـمَّ قامَ فخطَب فقال: «يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّما أَهلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كانُوا إذا سَـرَقَ الشريف تركُوهُ، وإذا سَـرَقَ الضَّعيفُ فِيهمْ أَقاموا عَلَيْهِ الْحَدَّ!، وايْمُ اللهِ: لَوْ أَنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَها».

* * *

لقد سـرقت امرأَةٌ من بنى مخزوم، ذاتُ حسَبٍ ونَسبٍ، وفزِع قوْمُها أَنْ يُطَبِّـقَ الرسـولُ ﷺ عَلَى تِلْك المرأَةِ حدَّ السَّـرِقةِ، وهـو قطْعُ يدِها، وحاولـوا أَنْ يجدوا أَحدًا يُكلِّم الرسـولَ ﷺ فِى وقْـفِ التنفيذ، بعدما ثبتت الجريمةُ، وبحثوا عن أَقربِ الناسِ إلَى قلْبِ الرسولِ الكريم ﷺ، فإذا هو أُسـامةُ بْنُ زيْدٍ، وهو شابٌ حدثُ السِّـنِّ، وابْنُ زيدِ بْنِ حارِثَةَ الـذى كان يُسَـمَّى زيْـدَ بْنَ محمـدٍ، على سـبيلِ التبنِّـى، إلَى أَنْ نزل القرآنُ بقوْلِه:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

وسجّل القرآنُ المَجيدُ اسمَه في قوله تبارك وتعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[2]

وتحمّل أُسامةُ مُهمّةَ البلاغ عن القوم إلى الرسولِ الكريم ﷺ، ومُهمّةَ الشفاعةِ لدَيه، وما كاد يتكلّم أسامةُ حتى تلوّن وجْهُ رسولِ الله ﷺ وقال في اسْتفهام إنْكاريٍّ:

«أتُكلِّمُنِي في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله؟!»

لأنَّ الحدودَ إذا بلغت الحاكمَ لا يمْلِك العفوَ عنها، وعليه تطبيقُ القانون بكلِّ دِقّة وأمانة. أما قبل التقاضي ورفعِ الأمرِ إلى الحاكِم، فيُمْكنُ التجاوُزُ والشفاعةُ لدَى أصحابِ الحُقوق..

واستشْعر أسامةُ ﷺ عِظَمَ الوَقْف. فقال: «أسْتَغْفِرُ الله يا رَسُولَ الله».

وأمر المُصطفى الكريمُ ﷺ بإقامةِ الحدِّ على تِلْك المرأةِ المخزوميّة، وقام في الناسِ خطيبًا مُحذِّرا من مغبّةِ تجْزِئَةِ القانونِ وتحويلِهِ إلى

(١) سورة الأحزاب الآية ٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

قانونٍ للضُّعَفاء دون الكُبَراء، وأكّد أنّ الأمْر جِدُّ خطيرٍ، وليْس فِى تطبيقِ القانونِ استثناءٌ، وقال:

«لوْ أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَها».

وقد ثبت أنَّ هذه المرأةَ المخزوميةَ، بعدَ قطْعِ يدِها، حسُنَتْ توبتُها، وتزوّجت.. وكانت تأْتى إلَى السيدة عائشة ترفع حاجتَها إلَى رسولِ اللهِ ﷺ.

اَلشَّفاعَةُ فِى الزَّواجِ

أخرج البُخارىُّ فِى صحيحِه، بِسنده عن ابنِ عباسٍ ﷺ أَنَّ زَوْجَ بَريرة كان عبدًا يُقال له مُغيث، كأنِّى أَنْظرُ إِلَيْهِ يطوف خلْفَها يبكي ودموعُه تسيلُ علَى لِحْيَتِه، فقال النبىُّ ﷺ لعباس:

«ألا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟»

فقال النَّبِىُّ ﷺ: «لَوْ راجَعْتِه.»

قالت: «يا رسُولَ اللهِ، تَأْمُرنِى؟»

قال: «إِنَّما أَشْفَعُ» قالت: «لا حاجَةَ لِى فِيهِ».

* * *

نحن أَمام موقفٍ له أَكثرُ من جانب، يُثِير العَجبَ ويدفع إِلَى التأَمُّل، إِنــه موقفُ امرأة تُسمَّى «بريــرة» كانت أَمَةً مُتزوجةً من عبدٍ يُسمَّى «مُغِيثًا» واشترتها السيدةُ عائشة رضى الله عنها وأَعْتقتْها، فثبت لهذه المرأةِ الخيارُ فِى استِمرارِ الزواجِ أَوْ فَسْخِه..

فاخْتارتِ الفَسْخَ. وكان زوجُهــا محبًّا لها، فصار يطوف خلْفَها فِى سِكَكِ المَدينةِ، يبْكِى ودموعُه تسيل على لِحْيته، رجاء أن تعود إِليه وترضــى به زوْجًا.. وأَصرّت المــرأةُ على موقفها، وتناقــل الناسُ حُبَّ مُغيثٍ لبريرةَ، وبُغْضَ بريرةَ لمُغيث.

وتدخّل الرسـولُ ﷺ فى الموضوع وقال للمرأةِ «لَوْ راجَعْتِهِ» وجاء فى بعضِ الرّواياتِ عند ابن ماجه: «فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ».

وكانت المرأةُ حكيمةً، فوقفتْ بأدبٍ جَمٍّ، وقالتْ:

يا رَسولَ اللهِ، تَأْمُرنِى؟!».

قالت ذلك وهى المرأةُ المسلمةُ، التى تعرفُ قولَ اللهِ تبارك وتعالَى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (١)

فطمْأنها الرسولُ الكريمُ ﷺ وبيّن لها أنَّ هذا العرْضَ ليس أمرًا دينيًّا من بابِ الوُجوبِ، فقال: «إِنَّما أَشْـفَعُ» أى هذه شفاعةٌ فى الخيرِ يتوسّطُ فيها الرسولُ ﷺ بيْنَ الرجلِ والمرأةِ..

عندئـذٍ قالت المرأةُ: «لا حاجَةَ لِى فِيهِ». أى أنها لا ترغبُ فِى العودة إِلَى زوجِها، وأنها تختارُ الفِراقَ .. وتمّ لها ما أرادت..

ولم يغضبْ رسـول الله ﷺ، وظلّت علاقتُها وثيقةً بآلِ بيتِ رسـولِ اللهِ ﷺ. وتحكى السـيدةُ عائشةُ – رضى الله عنها – كما جاء فِى صحيح البخارىِّ:

«دَخَلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، والبُرْمَةُ تفُورُ بلَحْم، فَقُـرِّبَ إِلَيْهِ خُبْزٌ وأُدْمٌ مِنْ أُدْمِ البَيْتِ.

فَقالَ: «أَلَمْ أَرَ البُرْمَةَ فِيها لَحْمٌ ؟».

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

قالُــوا: «بَلَى، وَلَكِنْ ذلِكَ لَحْمٌ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَــى بَرِيرَةَ، وَأَنتَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ».

قالَ: «عَلَيْها صَدَقَةٌ، وَلَنا هَدِيَّةٌ».

اَلشَّفاعَةُ فِى الدُّيونِ

اخرج البُخارىُّ بسنده عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضِىَ اللهُ عنهما: أنّ أباه تُوُفِّىَ، وترك عليه ثلاثين وَسْقًا لرجلٍ من اليهود، فاستنظره جابـرٌ، فأبَى أن يُنْظِـرَه.. فكلّم جابرٌ رسـولَ الله ﷺ، فكلّم اليهودىَّ ليأخذَ تمرَ نخْلِه بالتى له، فأبَى، فدخل رسـولُ اللهِ ﷺ النخلَ، فمشى فيها ثم قال لجابر: «جُدَّ لَهُ، فَأَوْفِ لَهُ الَّذِى لَهُ».

فجدّه بعدما رجَع رسـولُ اللهِ ﷺ فأوْفاه ثلاثين وَسـقًا، وفضَلت له سـبعةَ عشـرَ وَسْـقًا. فجاء جابرٌ رسـولَ اللهِ ﷺ ليُخْبِرَهُ بالذى كان، فوجدهُ يُصَلِّى العصْـرَ، فلما انصرف أَخْبَرَهُ بالفضل، فقال: «أَخْبِر ذلك ابْنَ الْخَطابِ».

فذهب جابرٌ إلَى عمرَ رضي الله عنه، فأخبرَه، فقالَ له عمرُ: «لَقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فِيها رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُبارِكَنَّ اللهُ فيها».

* * *

يضعُنا هذا الحديثُ الشَّريفُ أمام مجموعةِ حقائقَ شرعيَّةٍ:

أولا: لقـد مات عبدُ اللهِ الانصارىُّ وترَك عليْه دينًا هو ثلاثون وسْـقًا من تمْرٍ، والوسْـق نوْعٌ من الكَيْل.. ودُيونُ المَيِّتِ تنتقِل إلَى ورثته، يجبُ عليهم الوفاءُ بها قبلَ توزيع التَّركة، قال تبارك وتعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾[1].

وقال عليه الصلاةُ والسّلامُ:

«رُوحُ الْمُؤْمِنِ مَرْهُونَةٌ بِدَيْنِهِ، حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ».

أى: محبوسةٌ عن النعيم الذى تستحقّه، حتى تُسدَّد الديونُ التى على صاحبها.

ثانيًا: إنَّ هذا الدَّيْنَ كان ليهودىٍّ، وفى ذلك دَلالةٌ على جوازِ المُعاملةِ بين المسلمين وغيرهم، بل إنّ النبىَّ رسولَ الله ﷺ نفسَه كان يتعاملُ مع غير المسلمين: بيْعًا وشِراء ورهْنًا. ويجب أنْ يكون شِعارُ المعاملةِ حُسْنَ الخلق وسماحَةَ النفس وتيسيرَ الحوائج.. قال تبارك وتعالى:

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[2].

ثالثًا: إنّ علاقةَ الدائنِ بالمدين يجب أنْ تقومَ على الرِّفق بدءًا ونهايةً، فالإقراضُ من أبوابِ الْخَيْرِ التى حثَّ عليها الإسلامُ، قال تبارك وتعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[3].

واستيفاءُ الدَّيْنِ يخْضعُ لمكارمِ الأخلاق، قال تبارك وتعالى:

---

(١) سورة النساء الآية ١١.

(١) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٣) سورة الحديد الآية ١١.

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وملخَّصُ الموقفِ أنّ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ الأنصارى استنْظر اليهوديَّ صاحبَ الدّين، أى: طلب منه الانتظارَ حتى ميْسرةٍ، فأبَى اليهوديُّ ورفض، فكلّم جابرُ رسولَ اللهِ ﷺ ليشفعَ له عند اليهوديِّ، فقام الرسولُ الكريمُ ﷺ، وذهب إلَى اليهوديَّ شافعًا كى يُنْظِرَ جابرًا، فأصرَّ اليهوديُّ على رفْضِه..

هنا عرض عليه الرسولُ اللهِ ﷺ أمرًا آخر، وهو أخذُ تمْرِ بستانِ لجابرٍ مُقابل الثلاثين وسْقا، التى هى الدَّيْنُ، دون نظر لكميّة تمرِ البستان على سبيلِ المُعاوَضة، وليس على سبيل البيْع، فالتفاوُتُ فِى السدادِ برضا الطَرَفيْن جائزٌ شرعًا، وهو من حُسن الاقتضاء.

فإذا كان تمرُ البستان أقلّ من الثلاثين وسْقا، فليتنازل اليهوديُّ، وإن كان أكْثرَ فليتنازل جابرٌ. ومع حُسن النِّيَّة والكرم لا حرَج فِى هذا التفاوُت. وقد ثَبَتَ أن النَّبىَّ ﷺ قضَى دينًا عليه، وزاد صاحبَه عشرين صاعًا .. وثبَت أن رجلا تقاضى رسولَ اللهِ ﷺ فأغْلظ له، فهُمَّ به أصحابُه، فقال:

«دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصاحِبِ الْحَقِّ مَقالًا، واشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ».

فقالوا: لا نجدُ إلّا أفْضلَ من سِنِّه. فقال عليه الصَّلاة والسَّلامُ:

«إِنَّ خَيْرَكُمْ أحسَنُكُمْ قَضاءً».

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٠.

وأمامَ إصرارِ اليهوديِّ على رفضِ شفاعةِ الرسولِ ﷺ - فى إنظارِ جابر، أو أخذِ قدرٍ مجهولٍ مُقابلَ قدرٍ معلوم - لمْ يغضبْ رسولُ اللهِ ﷺ، لأنه لا ينتقمُ لنفسِه قطّ، وإنما يغضبُ متى انتُهكت حُرُماتُ اللهِ..

ورجَع الرسولُ ﷺ، ودخلَ بُستانَ جابر، ومشى بيْن النخيلِ، ثُمَّ قال لجابر: «جُدَّ لَهُ، فَأَوْفِ لَهُ الَّذِى لَهُ» يعنى: اِجْمَع التمْرَ، وزِنْ له القدرَ الذى اقترضْتَه منه. وبدأ جابرٌ حصادَ تمْرِه، فكان شيئا كثيرًا، فأوفى لليهوديِّ حقَّه ثلاثين وسْقا، وبقِىَ لجابر بعد وفاءِ الدّيْن سبعةَ عشر وسْقا.

أى: إنَّ البُستانَ الذى عرضه الرسولُ ﷺ على اليهوديِّ ليأْخُذَه مُقابلَ ديْنِه قد بارَك اللهُ تعالَى فيه بدخولِ الرسولِ ومشْيِه بين أشْجارِه.. وزاد التَّمْرُ زيادةً كبيرةً غطّت الدّيْنَ، وبقِىَ لجابر ما ينتفِع به.

وفرِحَ جابرٌ بذلك فرحًا شديدًا وازْداد إيمانُه وتعلُّقُه برسولِ الله ﷺ فجاء مسرِعا، وأخبر الرسولِ ﷺ بما حدث، فأمره الرسول ﷺ أن يُخبر عمرَ بن الخطاب ﷺ. ولعلّ عمرَ كانَ شديدَ الغيْرةِ مُنْفعِلا عندما رفض اليهوديُّ شفاعةَ الرسول ﷺ، فأراد الرسولُ ﷺ أنْ يُطمئِنَه بأنَّ لله الحِكمةَ البالِغةَ.. ولم يكن ذلك بِخافٍ على عمرَ، فقال لجابر:

«لقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فيها رَسُولُ اللهِ لَيُبارَكَنَّ فِيها».

فبركةُ رسولِ اللهِ ﷺ معلومةٌ مُشاهدةٌ، فهو حبيبُ ربِّ العالمين.

«تم الكتاب بحمدهِ تبارك وتعالى»

المؤلف فى سطور

الدكتور محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف.

- حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٨ م.
- أعير أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧ م.
- أعير أستاذا للعقيدة والأديان فى كلية أصول الدين والدعوة - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٣ - ١٩٩٨ م.
- انتدب للتدريس فى كليتى التربية والعلوم - جامعة قناة السويس بالإسماعيلية على مدى ربع قرن.
- يقوم بالتدريس فى دورات معهد الإذاعة والتليفزيون بوزارة الإعلام، ودورات تدريب الأئمة بوزارة الأوقاف، ومعهد الدراسات الإسلامية بوزارة التعليم العالى.
- عمل مستشارا لوزير الأوقاف سنة ١٩٩٢ م.
- شارك فى لجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية.

- شـارك فى عضوية لجنة الاختيار لقراء القرآن الكريم فى التليفزيون المصرى ١٩٨٩ م.
- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- لـه أكثر من أربعـين كتابا فى العقيدة والفلسـفة والأديـان والفرق والشريعة الإسلامية.
- ترجمت له كتب باللغة الألبانية والأندونيسية والماليزية.
- حضر مؤتمرات دولية وملتقيات فكرية فى كل من:

القاهرة - مكة المكرمة - مسـقط - أبو ظبـى - بغداد - الكويت - بيروت - الجزائر - طهران ، موسـكو - الما آتا عاصمة كازخسـتان- طشقند عاصمة أوزبكستان - باكو عاصمة أذربيجان - عشق آباد عاصمة تركمانستان - تيرانا عاصمة ألبانيا.

الفهرس

الفصل الأول : الشفاعة العظمى

الموقف العظيم..... ١٠

موقف آدم عليه الصلاة والسلام..... ١٢

موقف نوح عليه الصلاة والسلام..... ١٥

موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام..... ١٧

موقف موسى عليه الصلاة والسلام..... ٢٠

موقف عيسى عليه الصلاة والسلام..... ٢٣

مع سيدنا محمد ﷺ..... ٢٥

شفاعة الرسول ﷺ لأمته..... ٢٧

الفصل الثانى : سيد الشفعاء

أول شفيع..... ٣٠

الفاتح الأول..... ٣٢

الدعوة المخبأة..... ٣٤

اللهم: أمتى..... ٣٨

عدد الخصائص النبوية..... ٤٤

الفصل الثالث : الشفعاء عند الله تبارك وتعالى

عباد الرحمن..... ٥٠

شفاعة الشهيد..... ٥٢

شفاعة قارئ القرآن..... ٥٤
شفاعة المصلين على الجنازة..... ٥٦
شفاعة القرآن الكريم..... ٥٨
شفاعة سورتى: البقرة وآل عمران..... ٦٠
شفاعة سورة الملك..... ٦٢
شفاعة الأذان..... ٦٥
شفاعة الصيام..... ٦٧
الفصل الرابع : الفائزون بالشفاعة
الفائزون بالجنة بغير حساب..... ٧٠
التوحيد الخالص..... ٧٢
إجابة النداء..... ٧٥
سكنى المدينة..... ٧٨
مناجاة حول الشفاعة..... ٨١
عتقاء الله تبارك وتعالى..... ٨٣
إغلاق الأبواب..... ٨٥
الفصل الخامس : المحرمون من الشفاعة
لا شفاعة فى كافر..... ٩٠
موقف أبى طالب..... ٩٣
لا شفاعة فى المبدلين..... ٩٥
لا شفاعة للعُان..... ٩٨

لا شفاعة فى الغلول..... ١٠٠
الفصل السادس : الشفاعة فى الدنيا
الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة..... ١٠٤
لا شفاعة فى الحدود..... ١٠٨
الشفاعة فى الزواج..... ١١١
الشفاعة فى الديون..... ١١٤
المؤلف فى سطور..... ١١٨

العدد القادم

القرصنة الوراثية

د. أحمد مستجير

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

هـذا الكتـاب يعمـق قضية الإيمـان فى النفـوس ، ويحقـق مـكارم الأخـلاق فى السـلوك ، ويربـط بين عـالم الغيب وعالم الشهادة .

يشرح الشـفاعة العظمى لسـيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسـلم – يوم القيامة ، ويتكلم عن الشفعاء من حملة العلم ، وحفظة القـرآن ، وعباد الرحمـن ، والمدافعين عن الأوطان .

يقارن بين الفائزين بالشفاعة والمحرومين منها يوم القيامة .

ينادى بالشفاعة الحسـنة فى هذه الدنيا لدى أولى الأمر وكبراء المجتمع كى يساعدوا الضعفـاء ، ويرفعوا الظلـم ، ويلبوا مصالح الناس .

دار المعارف

٤٠٧٨٠٨/٠١